الرواية الفائزة بجائزة صالون نجيب الثقافي
الدورة الثانية ٢٠١٦

هشام عيد

رواية

حارة سر الدين الفلواتي

obeikan.com

الكتـــــــــاب: حارة سر الدين الفلواتي

المـــؤلـــــف: هشام عيد

تصميم الغـــلاف: مروة فتحي

المراجعة اللغوية: مؤسسة إبداع للترجمة والنشر والتوزيع

رقـــم الإيـــداع: 23333 / 2016

الترقيـم الدولـي: 978 - 977 - 779 - 130 - 4

الإخـراج الفنـــي: مؤسسة إبداع للترجمة والنشر والتوزيع

المدير العام: عيد إبراهيم عبدالله

جميع الحقوق محفوظة

وأي اقتباس أو تقليد، أو إعادة طبع، أو نشر دون موافقة قانونية مكتوبة يعرض صاحبه للمساءلة القانونية، والآراء والمادة الواردة وحقوق الملكية الفكرية بالكتاب خاصة بالمؤلف فقط لا غير.

العنوان: 40 ش محمد فريد، وسط البلد، القاهرة

هاتف: 0227931911 - موبايل: 01001631173

الموقع الإلكتروني: www.prints.ibda3-tp.com

البريد الإلكتروني: info@ibda3-tp.com

obeikan.com

هشام عيد

رواية

حارة سر الدين الفلواتي

obeikan.com

obeikan.com

تقرير رئيس لجنة تحكيم مسابقة صالون نجيب الثقافي

الدورة الثانية ٢٠١٦ – الأدب السردي

فرع الرواية :

أ.د. نادر عبدالخالق

ضم هذا التقرير مجموعة من الروايات التي شاركت في السباق في مسابقة صالون نجيب الثقافي والتي يطلقها الدكتور محمد نجيب في صالونه الشهري برعاية مؤسسة إبداع، وكان التحكيم قائما على رصد قيم السرد وأركانه التى يتحقق من خلالهما العمل الروائى من أشخاص ولغة وعرض والفكرة التى قامت عليها القضية محور النص بالإضافة إلى العنوان وقدرة الكاتب فى التوظيف وربط هذه العناصر بعضها ببعض والخروج بنص سردى يبدو فيه الواقع والإنسان رؤية شاملة لقضايا العصر وأحلام الكاتب ومدى توفيقه فى الطرح والتناول

وجاءت المحصلة العامة لعملية التقييم مبشرة فى عمومها رغم تراجع وتفاوت النصوص مما يؤكد أن فكرة التسابق تؤتى ثمارها فى إفراز نماذج جيدة تبشر بخير كثير فى المستقبل، وهذا فى حد ذاته علامة طيبة ومؤشر جيد للصالون والقائمين عليه حيث يتضح الجهد وتبدو المسئولية هى غاية الصالون وفكرة

obeikan.com

المسابقة .

وفى النهاية تحية لكل المتسابقين وتحية لأعضاء الصالون وتحية للدكتور محمد نجيب الذى ينفق من جهده ووقته الكثير فى تقديم الإبداع والمبدعين فى كافة الفنون والأنماط الإنسانية والفكرية .

حارة سر الدين الفلواتى

العنوان يسير مع النص ويفتح الرؤية التعبيرية نحو اختزال الفكرة وترجمتها تصويريا إلى واقع سردى .. والفكرة جيدة والقضية مناسبة لطبيعة الفكرة النصية، والدلالات الفنية فى النص تقوم على فكرة التشخيص وبناء الفكرة مركبة من واقعية العناصر والانفعال بالمكان وسرد المواقف والأحداث وجاء العرض المشهد التشخيصي مع وجود عنصر التركيب الدرامى الشعبى بطريقة جيدة .. بالتوفيق لصاحب " حارة سر الدين الفلواتى " .

وقد ضمت اللجنة:

أ.د. نادر عبدالخالق

أ. أحمد عبدالمجيد

أ.د. محمد نجيب عبدالله

obeikan.com

تعريف برئيس اللجنة أ.د. نادر عبدالخالق:

-ناقد أدبي معروف وباحث أكاديمي وأستاذ النقد والأدب.

-دكتوراة فى اللغة العربية وآدابها تخصص الأدب والنقدكلية اللغة العربية جامعة الأزهر فرع المنصورة .

- عضواتحاد كتاب مصر.

-له العديد من المؤلفات فى مجال النقد الأدبي أشهرها: الرواية الجديدة (بحوث ودراسات تطبيقية) – الصورة والقصة (بحث في الأركان والعلاقات، قصص مجدي جعفر أنموذجًا) – الشخصية الروائية بين علي أحمد باكثير ونجيب الكيلاني (دراسة موضوعية وفنية) – الفنون الأدبية في مجلة الهلال من سنة (١٩٥٢-١٩٩٣) (دراسة تحليلية وتقدية)– إيقاع الصورة السردية – المتخيل التعبيري – الصورة الموضوعية – الصورة والتجربة – مختصر معجم الأدباء (من جزئين) – اتجاهات الصورة في شعر محمد سالمان – القصة القصيرة (قضايا واتجاهات) – الكونية وإيقاع السرد – آفاق المسرح الشعري .... وغيرهم.

openkan.com

obeikan.com

العائلة

كلما حاول أن يقبض على قطعة واعية من عقله أدركه الفشل. وكلما تبادر إلى ذهنه ذلك السؤال الثابت صلبا بين دوائر الدخان قبض على عقله الخمول وتاه في بحر الهلاوس..

لم توح ملامح أي منهم بالإجابة.. هل هم أبناؤه أم أبناء فرج الفوال؟ ملامحهم إليه تقف على نفس المساحة من ملامحه. وأمامه اتخذت موقعا لبيع الجرائد. ثلاثة وعشرون عاما وهي تلازمه كما يلازم هو المقهى. كان واحتها الفريدة وجلستها اليوميه والمنفق عليهم جميعا في الضيق واليسر..وبالنسبة له أيضا كان فرج هو منبع الكيف الذي لا ينضب أبدا..

لم يبق من أثر الأفيون إلا مرارته، واشتعال خفيف أعلى الرأس وعشق لانهائي للنوم.. أين البطولات المدهشة؟

وأطل من بين الركام ذلك الوجه الملطخ بالرمل والدماء وقال وهو يزفر النفس الأخير:

" وصيتك البنات. خذ ما تريد".

وذهبت كهرمانه وفي جوفها السر. أوشك أن يسألها لكنه خاف أن يكدر الصفو ونعيم الدخان.

*****

Obeikan.com

" بطتين في يوم واحد.منين؟ "

" ياخويا كُل. هو أَكل ولا بحلقه؟ فرج عامل معانا واجب"

*****

يصحو فيجد فرج الفوال مخمورا بالمنزل.. أرسل العيال في " سرحه".. قبض كل واحد ما يتناسب مع فهمه وقدرته على تدمير المتعة. الصراع بين الأفيون وبراشيم الوهم وبين الخمر والروم الردئ. أيهما يعرف أيهما؟

وسأله بلسان عيّ:

"فرج. أنت بتعمل ايه هنا؟ "

أجاب وقد برز شعر صدره الملبد وبدا اللباس والفانلة فاشلين في احتواء جسده الضخم المكور:

" باعمل ايه؟ مش عيب يا حموده؟ دانا ف بيت أخويا. هو انت مش كلت البطه؟"

ضحكتها اللاهية تقرع الصمت كأصوات رنين النحاس فتملأ الموقف غموضا وعهرا وألفة.

يمضي الليل وكلاهما لا يدري أكان حلما أم حقيقة.

obeikan.com

الأفيونجي

في البدء كانت الكلمة.. ثم صار الصمم.. لم يعد في الأرض متسع لقدمك. ضاقت بك المقهى وجافاك المكان. هذا هو الوقت المناسب للتبلد..

لم يعد قادرا حتى على تذكر طلبات الزبائن..المسافة بين طاولاتهم وبين النصبة أصبحت كتسلق الجبال. ينسحب السمع من استكمال المشوار.. عزلة من القطن والطنين..تصعب قراءة شفاههم، تصبح على البعد أشد عسرة.. لو كانت مقهى "الكاشف" ذات حدود لربما كان الأمر أهون، لكن الطاولات الآن تفترش الشارع حيث يُضاف لكل هذا الصخب أبواق السيارات وتوهة الصوت في المدى.. والأدهى من كل ذلك أنهم اكتشفوا علته. وضع شفاههم عند أذنه والصياح صار مهزلة.

رزع قواشيط الطاولة، ارتطام كروت الدومينو بالرخام وصيحات لاعبي الكوتشينة ورصانة لاعبي الشطرنج.. كل ذلك سار صامتا كالسحاب، صار تلقيهم مستحيلا.. في النهاية، لا يليق بقهوجي أن يكون أصما.. ويبق سؤال واحد صادم بحجم الإفاقة؛ هل يسمع الناس الأصم أم تطيش كلماته ككلماتهم في الهواء؟

أحدهم بلغ به الهزل أن قام من بين أصحابه ليرجع بنفسه بالمشاريب وكل رفاقه يضحكون. والمعلم الكاشف صاحب المقهى يراقب في غضب.. تحرك المساعد الأعرج مدعيا المساعده، في حضور المعلم كلهم مخلصون، أما هو،

فكأنما يشاهدهم من خارج دائرة في مكان بعيد.. لم يدر ما يفعل.. أيقوم هو الآن بدور المساعد؟ أيحطم الأكواب ويلقي المشاريب؟ شعر بفراغ العالم واتساعه وامتد الصمت المثقوب بالوش والصفير إلى ما لا نهاية، دارت به الدنيا ورست على وجهه نظرة فارغة وابتسامة بلهاء. انتابته رغبة أن يصرخ لينظر هل يسمع هو نفسه صراخه أم ليس سوى هذي الذبذبات. هبت عاصفة محملة بالتراب والأوراق فلاحت فرصة مناسبة لادعاء الإدارة.. طلب من أشرف النوبي أن يُنزل الخيام وينظف الصواني ويغطي الأكواب.

لماذا يبدو إبراهيم الكاشف طويلا جدا ومائلا أعلاه كلما ألمت به مشكلة؟ لماذا لا تبتلعهم الأرض جميعا؟ لماذا لا يضعهم كلهم في "قدرة" الفول ويضع فوقهم فرج ونجيه ويوقد القدر بأوراق الخطاطين؟

لم يكن "عم بيتهوفن" – كما أصبح يحلو للبعض أن ينادي حمودة الأفيونجي- ليقبل الأمر رغم ذلك بسهولة، سماكة جلده وبلادته حالتا دون تقبل الهزيمة.. قرر استخدم طلقته الفضية..

وقف بينهم كأثر قديم كست أحجاره الأتربة.. نكس رأسه باقتدار والتجأ للذريعة الأبدية التي يلجأ إليها في كل خذلان.. تعمد أن يسمعه المعلم الكاشف.

" أنا حاربت ف سبعة وستين وتلاته وسبعين..أصحابي ماتوا حواليا.. لبست الأفرول ودافعت عن رمل سينا قبل أبوك انت وهو ما يقابل أمك."

ثم يصبح آداؤه دراميا تماما منتهيا بشهيق بين كلمات الجمل التالية..

opelikan.com

" لبسنا الجزم ست شهور لما رجلنا دودت في الصحرا وشراباتنا باشت.. دلوقتي بتتريقوا عليا"

يصمت الشباب غالبا متأثرين وتحوطه جماعة الخطاطين فيضمه أكبرهم ويربت على كتفيه في حنان كنموذج للنضال الوطني وعبث الأقدار، وتنتهي هذه الوصلة دائما بأن يجمعوا مالاً يدسوه في يديه وهو يدعي التعفف. تواتيه الفرصة حينئذ في مغالطة الحساب، يسمع لاعبي الشطرنج بصعوبة لكنه يحفظهم، إما مدققون يحسبونها بالمللِي أو أسخياء يضحون بالرخ والوزير ويجزلون بلا حدود.."

"حسابنا إيه يا عم حموده؟"

" خلاص بقى يا باشا خلليها علينا"

" قدها وقدود يا راجل يا طيب..قل لي كام"

" ماشي." يحسبها في ذهنه قليلا

" أربعه سخن واتنين سحلب وتمن حجاره قص يبقى كله سته وعشرين"

لكن إبراهيم الكاشف صاحب المقهى سئم مغالطة الزبائن وسئم كل شيئ فيه ولم تعد تؤثر فيه خطبة النضال الحربي هذه.. كما أن قصة حموده الأفيونجي مع الحرب تشعره بالقرف والغثيان.. يعلم تماما ما كان يفعله في الميدان، لقد حكي له ذات مرة وقد ذاب فص الأفيون وانتشى تماما أن كل ما فعله في الحرب كان سرقة مقتنيات زملائه القتلى.. ساعات وأموال وخواتم وذخيرة، وطعام.

obeikan.com

دق ناقوس الخطر، يعرف إبراهيم الكاشف، يصبر كثيرًا ويحتمل بلا حدود لكنه يكره أن تظنه ميتا.. عندما يوشك اللبن أن يفور ويضيع سدى يعرف تماما اللحظة المناسبة لفصله عن النار.. يدير المقهى ويعرف كل ما حوله لكنك لا تكاد تسمع له صوت، يتنازل حتى تظنه غافلا لكنه إذا انتفض وقبل التحدي لا شيء يقف أمام عناده.

ظل على اعتياد ذهابه كل صباح يشرف على كنس المقهى وترتيب الكراسي ومسح الطاولات ورص المعسل وترتيب النصبة. يحاول أن يملأ الصباح أمامهم بحركة دءوب لكنه يشعر بالخلل، لا يستطيع أن يملأ الفراغ.. ليست هذه مهارة القهوجي، أشرف الأعرج يستطيع فعل هذا، لكن جمع أكبر قدر من الطلبات والتنقل كالحمامة بين الطاولات والعودة إلى النصبة ثم إلى الزبائن متذكرًا طلب كل واحد شاملاً ببصره وسمعه البعيد والقريب.. تلك هي المهارة، فهم الزبون ومشروبه ولونه.. بين ملتصق بكرسيِّه يطارد فكرة خلف دخان الشيشة، ومن جاء ليصرخ ويُبدي مهارة لم تعبأ بها الحياة فَيُخرج "كل غُلبه" في عشرة كوتشينة، والذي جاء ليصمت في ركن قصيٍّ هاربًا من ضجيج العالم، وعاقدو الندوات والصفقات، وتذكر حساب كل هؤلاء فردانا وجماعات.. تلك هي المقاهي.

كان الأفيون يمنحه هذه القدرة.. كما كان كرباج السرير.. لكن جدائل السوط تهتكت فلم يعد يمنحه غير الخيال والارتخاء.. جلس المغني وجهز الربابة لكنه لم يجد في ذهنه الأغنية، وصار السبيل مبولة. لا يسمع مما يدور حوله إلا

اللمم.. كل ما تطال يداه من مكيفات لن يصله بماضيه أبدا، ويصله من ذاكرة بعيدة صوت المغني الذي كان يمر بالمقهى قديمًا:

"يا مسأسأ الصبر فوق الجرح من بره

الجرح يا عم نازز دم من جوه !

لم يكن يدري أيبش أم يعبس في وجه هذا الوافد الجديد الذي جاء بزعم المساعدة وهو يعلم تمامًا خبث منشئه وخسة نفسه.. والخائنون ينسجمون بسرعة الضوء مع أي خادم. ملأ المجال نشاطًا وحيوية تدعمه صداقة حميمة بأشرف.. النادل والأعرج.. ياللمقاهي!! بمساعدته سيطر على المكان كله في وردية واحدة.. وصار محل الوراق القديم مرتعًا لأفلام السكس.. وخدمة الأقدار للمعلم تعفيه من أي حرج.

"الواد مش غريب دا حته منك."

سأله الخطاطون عن اسمه وسنه في حنان.. دار ولف بين خطوطهم، اعتبروه منهم. البقشيش له أما ما يصله هو ففضلة الصدقات والعطف على النادل القديم..

المدهش أن هذا الوافد الجديد المشتعل حماسًا ونهمًا إلى السيطرة هو "سوكه" .. ابنه.

*****

obeikan.com

تتخذ المقهى موقعًا أثريًّا بين مجموعة مبان صارت تابعة للأوقاف.. وهي مبان تبرع بها أصحابها منذ مئات السنين لتصير وقفًا لله تعالى وصدقةً على الفقراء ثم صارت ملكيتها لوزارة الأوقاف. آخر الوارثين كان يقبض ثمانية جنيهات شهريا عن كل هذه المباني. حاول جاهدا فك الوقف من براثن الوزارة لكن هيهات. كثر بعد ذلك الورثة ولم يعد أحد يسأل عن جنيهات ثمان توزع على عشرات الوارثين. رغم رثاثة حال الوقف وقلة الرعاية يحج السائحون إليه ويلتقطون الصور.

على يمين المقهى سبيل أثري كبير الأحجار تطل ناصيته على حارة دعبس، تعشقه جماعة الخطاطين، كان السبيل واحة ماء وسقاء للظامئين العابرين ومالئي القِرَب وعلى يسار المقهى مبنى كبير واسع كان قديمًا يسمى التكية، يدخلها عابرو السبيل والمعدمون فيجدوا الطعام والمأوى..

التكية الآن مغلقة تمامًا لا تحوي بداخلها سوى الثعابين والفئران وذكرى الجائعين. تمامًا كنفسه.

أحمد فؤاد نجم

وبجوار التكية تحول محل أثري آخر لبيع أفلام الفيديو لا يؤمه سوى المراهقين.. كان هذا المحل في الماضي خان وراق يبيع المخطوطات، أما المقهى فكان كذلك منذ عهد الربابة سمعت أحجارها كل فتوحات الهلالي والزناتي.

تبدل الزمان.. السبيل الذي كان واحة سقاء صارت حوائطه الأثرية مرحاضًا يتبول عليه العابرون. الدور العلوي الذي تغطي مساحته المقهى والسبيل ونادي

الفيديو مغلق الآن تماما ليس على شبابيكه سوى التراب والعفن.. تماما كروحه وقلبه. الباب المؤدي إلى كل ذلك الوقف العملاق باب أثري صغير لا يليق بضخامته وكثرة خدماته. لكن ذلك لحكمة، فليس أدعى للهرج من الجوع.. ضيق فتحة الباب يسهل دخول الجائعين وترتيبهم وتوزيع الطعام والموائد، لكن ما الحكمة؟؟ ألا تسمح هذه الأذن بمرور الكلمات؟

يظن الناس أن الأصم يعيش في جزيرة هادئة، ليتهم يرحمونه لحظة من هذا الوش والطنين والألم الحاد الذي لا يتوقف... أما المفاجأة المخالفة لكل توقع فكانت ليلة أن أتاه سوكه بأجر الوردية كاملاً..التقطها كالنسر..ذلك حقه الذي استولى عليه.. لقد التقطها من جيبه حين سقط قتيلا.

openkan.com

النكسة

في الليل أيضا يلاحقه الفشل. لم يعد قادرا على انفرادة واحدة تتصف بالتمام..بل إن البراد يفور ولما يستوي الماء بعد. النار تومض لكنها بلا وقود.. من له بكباس يظل متدافعا لتحمية الوابور.

لا تصطنع هي أي شكل لمداراة الخيبة والملل.. حتى صمتها يعايره، ليلها ازدراء وصباحها كدر. ولسانها أنفذ وأسرع من طلقات الرصاص. لا تغنيك براعة المشاريب القديمة لأنها بالفعل قد شُربت وانتهت.

في المحاولة الأخيرة قبل عام، ظل جاثما فوق صدرها كحجر ثقيل.. ظل كلاهما صامتا.. تعريهما في هذه اللحظة كان مقيتا. صارت أجسادهما بلا طعم ولا معنى. سادت رائحة العرق.. البوادر كانت كثيرة لكن هذه المرة قاصمة.. كل المحفزات فاشلة.. ألقته جانبا في فتور يشوبه صدق التوقع.. نظفت نفسها ثم أعطته ظهرها للأبد وأعطاها ظهره أيضا بغير اكتراث... لم يكن أساسا يكترث للأبد.

البقاء في المنزل يشعره بالتطفل. كأنه جاثم فوق صدورهم أيضا. "أنا الذي صنعت هذا البيت يا حشرات." لم يشعروا بوجوده يوما.. يتحدث كثيرا حتى لو لم يسمعه أحد.. أيام تمر وليس سوى الفراغ والملل.. أوحشه صخب المقهى.. يذهب إليها الآن كغريب منبوذ.. يظل جالسا بالساعات.. يحاول لفت الانتباه،

obeikan.com

يدعي المساعدة لكنهم يتجاهلونه.. ليس مطلوبا منه غير أن يجلس أو يبتعد..

في البيت أيضا "اجلس صامتا أو ابتعد.. لم يعد في الحياة متسع لك."

والبيت لا يغنيك عن صخب المقاهي.. كل ما حولك غاضب ومشمئز. هل يشعر الفوال نحوهم بالحنان؟ أتعيره أيضا وتقلب سحنتها في وجهه أمَّا زال سوطه يطرقع؟

وقديما غنى المغني على الربابة:

" أذاهب للحرب يا عنتره

أم قاعدٌ في البيت مثل المره؟

فأجابه الفارس المغوار ملوحا بسيفه البتار

" العار ولا قعدة الراجل في الدار."

يذهب ويروح كأنه ليس بكائن. أبناء الظلام والمجهول.. قبيلة من الخونة تقودهم نجية الأعمش المتأصلة في العهر منذ نشأته الأولى.. لعلها تلك التي قصدها مغنواتي المقهى "نجيب" بالطائرة الفانتوم.

تزوجها بعد النكسة بخمسة أعوام في أجازة خاطفة. لم يكن هناك وقت للاختيار والتدقيق. انتقاها من مكتب أم عامر لتوريد الخادمات، شعار خفي للبغاء، خادمة في الثلاثين لا أصل لها ولا نسب. كالبغل، لا هي بالذكر ولا بالأنثى، طويلة كسنفور المحطة، تكبره بسبعة أشهر وتفوقه طولا ونحولا..

obeikan.com

ترك العدو على الحدود ليلازم عدوا أشرس إلى الأبد. أدرك في ليلة الدخلة أن كل فتوحات أبي زيد الهلالي سلامة والزناتي خليفة لم تكن محض أغان ربابه.. لقد دمر الفاتحون بوابات المدن.. ليته ادخر قنبلة يدوية مذخرة يدسها في قدر الفول الواسع، عاد للميدان بعد سبعة أيام.. الشمس والصحراء والوقت الممل.. أشعلته رغم قصر المدة وحمَّلَته بذكرى كافية لإيقاد الشوق كلما خبا.. متقدة كالوابور، قادرة رغم عطب الجمال على منح متعة بلا حدود. في لهفة ودعته.. ثم لا يدري، أهو الذي حَمَّلها بهذا الذي عاد بعد سبعة أشهر فرآه مكورا بطنها.. لابد أن الحرب حملته "بلبن العفريت."

تحايلت على صعاب الحياة في غيابه ببيع الجرائد أمام فرج الفوال.. ماله يستقبله كصديق أعياه الشوق وما هذا السخاء وهذا التآلف؟ شعر أنه الضيف بينهما. ساحر يمتلك الصنف المميز.

" شد شد ياحموده..حط الفص دا تحت لسانك. بتحب البط يا حموده..اعملي لنا بطه يا نجيه الليله دي ..خللي الراجل يرم عضمه."

أجازة قصيره وعاد للميدان..الشمس والصحراء والوقت الممل.. بذهنه آلاف الأسئلة لكن البحث مضنٍ والصحراء لا تمنح أجوبة بل لظى مُستعر.

" روح انت بس خللي بالك م الحدود وعيالك ف رقبتي.. شد يا حموده "

إذا لم تسأل عن البطة الأولى فلا يحق لك أن تسأل عما يحدث في الحظيرة

وأوصاه البطل الذي تصدى للدبابة قبل أن يموت بالسلام على بناته بينما كان

يخلع ساعته..

"ورينا بس معاك كام"

بصق في وجهه بعد أن نطق الشهادة. وتحولت نظرة التوسل في عينيه إلى نظرة احتقار وبغض ظلت ثابتة على وجهه إلى أن أسكنه الموت..

أكمل تفتيش جيوبه وهو يدندن في حزن "الله يا دايم هو الدايم ولا دايم غير الله.. تعثرت الظروف في الأجازة الثالثة..أعوزه المال وأوحشه الحشيش وذوبان الفص واشتعال البدن. رأته بعينيها، هو الذي يحتضن فرج كصديق حميم هذه المرة وسمعته بأذنيها يدعوه للسهرة. أهداه ساعة ماركة جوفيال وخاتمين فضيين ثم سألها في خفاء:

"هو مش هيجيبلنا بطه؟"

سخيٌ فرج..أعطاه ما يريد من مال. باع له ما جلب من خواتم وساعات. وذاب الفص واشتعلت أحجار المعسل ممهورة بأطيب انواع الحشيش وملأت يديه رائحة الظفر وراح الثلاثة في نوم عميق..

لم ينقذها فارسها "الخيبان" من ذل الشوارع. لا يمانع، ليس ثمة فارق بينه وبين أم عامر..

يعود من الميدان فيجد الركوبة والمزاج والظَفَر.. وتمتد في الظلام يد دفعت الثمن مقدما.. تعتصر نهديها بكل جسارة وجنون.. "يا راجل عيب الراجل نايم" ..

لا بأس! غط وجهه ببدلته العسكرية.

*****

عندما عاد علي العراقي من العراق وانتشرت قصته في حارة سر الدين الفلواتي، صاحب الحارة الذي غاص في الطين وقلبه شاخصٌ إلى السماء، سأل نفسه وحوله أربعة من الأبناء في لحظة بين الصحو والغفلة، لماذا لم يفعل مثل ما فعل العراقي بعَلي العراقي؟!

أدرك على الفور الإجابة.. أوشك أن يستفيق من طعمها الرملي الملطخ بالدماء.. عاد العراقي من حربه الخائبة، التي يقتل فيها الأخ أخاه، بالقسوة.. أما هو فلم يعد من حربه المقدسة بالنخوة..

وضع الفص تحت لسانه وأغمض عينيه.

*****

obeikan.com

كهرمانة

عوف الليبي.. الخال، الدفء والغرابة ونظرة العين الغائبة. ذكرى هائمة لرجل سمين الكفين ضخم الرأس جالس على مقعد كبير لا يجلس على سواه. خفي عن مجال الرؤية بإحدى زوايا الغرفة في حر شديد، يتربص بلحظة غافلة وسكون. ضخم كالجبال يذهب برأسه يمنة ويسرة ويعود فيحركها يسرة ويمنة.

يدعوهما، يتأملهما قليلا ثم يسحبهما، واحدًا تلو الآخر، إلى دائرة الوجد. يضمهما إلى صدره في حنان غريب ثم يوقفهما أمامه كالمنومين. يسحب أكف الطفلين تباعًا ويدسهما تحت خصيتيه ثم تغيب عيناه في لحن بري لا يسمعه سواه. الدفء والغموض والسخونة. لا يبتدران حركة بغير إذن منه، يشعران بمتعته.. بالبر به. يدفعهما نحوه.. يشتد الحضن وتعتصرهما الضمة ويذهب بهما بعيدا بعيدا.. إلى حافة الإختناق ثم يرسلهما مرهقا. متعته بعد ذلك أن يراهما عاريين ويلمسهما ويبادل وضع أيديهما كل على جسم الآخر.. بهدوء. سقف الحجرة أسود والباب مغلق بإحكام والكل بعيد وليس في الوجود سوى الخال وأجسادهما الباردة وتجاهل العالم، والسماء.. وفي قصور الثقة عبثت سكان الفواحش.

لم يدريا أيحكيان للأم أم يستديمان رضاها بترضية الشقيق.

خدر لذيذ ممتع من لمس الأيادي ويباركه الخال. حتى حين أدركهما المقت لم

openkan.com

يكن ممتعا إلا هذه الأنامل وهذا الدفء وزومة الصوت الشجية. ويطويهما الليل ولا يعبأ بهما السحاب. ينظران إلى سقف الحجرة الأسود كالسخام ويديمان النظر منتظرين بطش السماء، لكن الليل يمضي ثم يستيقظ النهار ساطعًا، فيستيقظ السعار والأنانية والبرودة المقيتة والجدب في كل المشاعر، ويطوي الاعتياد كل شيئ، وتمضي الحياة كما هي، الخال والأم والأب في نعيم. فماذا في الأمر إذن؟

مات قبل أن يفهما ماذا كان يدور. لم يَبُح أحدهما للآخر بتلك الذكرى وذلك السر الخفي. لم يتطرق أحدهما إليه أبدًا أملاً أن يكون الآخر قد نسيه. أشاعوا أنه كان زوجا لجنية اسمها كهرمانة، سكنته حين كان عامل بناء في صحاري ليبيا ومنحته قوى خارقة. كان قويا كالبغل يثني أسياخ الحديد بيديه العاريتين. وتضاجعه العفريتة ليلا فوق رمال الصحراء الدافئة ويأكل الثعابين ويصطاد الثعالب ولا تضره العقارب.

يقوم في الليل البهيم ويطلق عواءً غريبًا. يكتمل الرعب حين تجيبه "ماجده" القاطنة بالطابق الأعلى بصراخ متقطع يشق الليل ولا يقترب لتفسيره أحد.

*****

في هالة من التقديس والشعور بالإكبار لهذا الذي تلبسته الجن وحُرمت عليه زوجة من الإنس كانت طاعته كطاعة الرب نفسه.

" صباح الخير يا ربنا. عامل ايه. حبيبي يا رب خليك معانا النهارده"

كانا يسمعان حديثه مع الله بعد طلوع الشمس. لا بدَّ أنه يعرف الله وأن الله يعرفه شخصيا.

" هكذا تبيض الفرخه. في هذا الدفء. أعطني يديك. هات يدك أيضا"

تخفت في باطن نفسيهما الذكرى. أورثتهما عشق الخروج عن المألوف. كلما كبرا أدركا فصلا جديدا من الحكاية. الغيظ والندم. ملعونان في كل الشرائع. لم يضع أحدهما عينه في عين الآخر أبدا. دائما من خلاف. لم تغنه عنها صديقتها رشا.. ولا وصل به غيرها إلى تلك اللذة البعيدة الغائرة التي كانت في نظرة عين الخال. كسر المجهول وتحدي العرف والتقاليد والرب نفسه.. ألم يكن الرب موجودا حين هتكنا الخال؟"

*****

كان ضخما وغامضا كالليل، يصلي الفجر في المسجد ثم يذهب إلى الكنيسة عصرا. يتبتل بآيات من القران والصليب في يديه، شره في طعامه وشرابه، يصوم في رمضان ثم تنتابه الرغبة فجأة في شرب الخمر جهرا أمام الصائمين في الشارع. يعشق الغناء ويقتنع أنه ليس شرطا أن تكون عذب الصوت لتصدح بعلو صوتك مغنيا. قد يضيق من غير سبب بأي شخص فيفتك به بيديه الصلبتين كالحديد، يتحاشى غضبه الجميع. يقول إنه يتبع قانونا بداخله لا يعرفه البشر.

لا يعرف الخوف إلا إذا قابله "عضمه السروجي". شاب هزيل نحيل لا تكاد تقف به قدماه لكن الخال، عوف الليبي، على ضخامته وجسارته وثني الحديد يتجنبه ويقعي أمامه كالكلب إذا رآه ولا يخرج أبدًا إن كان عضمه بالشارع. " عضمه

obeikan.com

زعيم القبيلة"

يسري في الليل حيث تأخذه قدماه. قد يغيب ليلة أو ليلتين ثم يعود فينام ليلة أخرى. لا يسألونه أين كان وماذا حدث. يملؤهما الرعب حين يسطو صوته في الليل الحالك وهو يئن وينثر كلاما شهوانيا ومحموما ثم ينتفض ويتعرى تماما ويتعرق ثم يصرخ لاعنًا كهرمانة ويتلوى متألما ويرفس بكلتا قدميه يرجوها:

"ارحميني بقى يا كافرة. كفايه أنا تعبت. مش قادر مش قادر".

يفعل كل ما يضمن له الإحتفاظ بحالة الجنون والتقديس. يدخل أي بيت في أي وقت يسأل عن طعام أو يتنبأ لهم مما شم من رائحة. يُجلس الأطفال على حجره ويروي لهم أسطورة البيضة التي إن سلقناها جمدت وإن قليناها تشهت وإن حفظناها في الدفء فقست فرخا. والأباء والأمهات يضحكون ويتبركون بهذا المسكون ويحذرون جميعا أن تحرقهم كهرمانه أو يجعل كهرمان المارد ذو العينين المرعبتين أعالي الحارة سافلها في لحظة غضب.

*****

في الليل تدور الجوزة بينه وبين الأب وفرج الفوال وإبرهيم المكوجي. أربعة رجال يتسيدون كونهم الصغير ترافقهم سيدتان، جارتهم حوريه الشامي بنت المرحوم حسن الشامي مؤذن المسجد وأمهم نجيه. يوقد الشقيق الأكبر سوكه النار ويرص الحجارة بالمعسل بينما يقطع، الأصغر، سلامة الحشيش بأسنانه ويرصه قطعا صغيرة فوق الطبلية، يختم كل حجر معسل بقطعة من حشيش

فترسو حولها النيران. عشق منذ طفولته مذاق الحشيش وتفنن في معرفة أصوله. أما الدخان الأزرق وجو الانبساط فكان عالما سحريا هائما وغائما وخرافيًّا شمل الأطفال الثلاثة للأبد.. وفي زاوية غير بعيدة جلست نجية، الأم، متكئة في جلباب وردي تصارع ضحتكها ألم الحمل.

أما حوريه فقد بدت في قميصها الأحمر العاري اغواء ممتدا منذ الأزل وقد انتفض ثدياها متمردين على الإحتواء وتحول مبسم الجوزة في فمها ذي الروج الصارخ إلى ناي ذي نغم شبقي محنك.

" يا سعده يا هناه اللي هياخدك يا حوريه"

" كل البلد عايزه حوريه"

" هو على هييجي امتى م العراق يا حوريه؟ "

" والله شكله نسي"

يسدد إبراهيم المكوجي نظرة جائعة إلى صدرها المتقد كبركان.

" هو اللي زيك يتنسي يا حوريه. ".

ضحكهم مع قرقرة الشيشة والجو الأسطوري من الرهبة الذي كانت تفرضه طلبات الجنية وحكاياتها ونشوة الدخان المتدفق والرائحة الغريبة، كل هذا الخيال سكنهم إلى الأبد وظل في الغرفة حتى بعد رحيل الخال. وظلت كذلك نظرة متهتكة متبادلة بين الأم وفرج الفوال، تنتظر الغافل بإرادته حتى يغفو، عالقة في جدران الحجرة.

obeikan.com

ويختفي إبراهيم المكوجي وحوريه الشامي مع اختفاء آخر سحابات الدخان في سقف الغرفة. أتراه يعرف أبونا تفسيرا لما يفعله الخال؟ لماذا يختبئ بنا ويهددنا بالجنية والمارد إذا نحن قصصنا قصة فرخ البيض؟ يدعي حنانا مختلفا في هذا الجمع وعشقا طبيعيا لا بيض فيه ولا فرخ.

حتى حين كبرا وأدركا الحقيقة كانا أكيدين أن أباهما لو علم كان غضبه كله ليهدأ مقابل قطعة من حشيش لن تجده إلا عند تجار السلوم مهربا من ليبيا ولا يجلبه إلا الخال.

يذكر سلامة أنه أقبل نحوه ببراءة طفل وهم يتبادلون الشيشة فعمد بإحدى يديه تحت خصيتيه ليسعده مادام ذلك يسعده. سادت لحظة صمت ودهشه. حتى الدخان سكن حينها وهدأت قرقرة الشيشة في تنازل بطيء ومرت لحظة باردة وعلا أزيز مروحة قديمة ثم غرق الجميع في ضحك تقطعه أصوات سعالهم حين تخلص عوف الليبي من الموقف قائلا.

" الولعه هناك يا حبيبي ملكش دعوه "بالمنقد" اللي هنا"

غالبا تنتهي هذه الجلسة بأن يزوم الخال ويدمدم ويعوي ثم يرجف رجفة متقطعة ليست كأي رجفة، يتحرك حينها كبندول ساعة يموت، يرتفع سواد عينيه وينتشر فيهما البياض ويزبد فمه ويسقط على الأرض فيشتد العصب حتى لا يقدر عليه أحد ثم يلتف حوله الجميع فيسرد طلبات الجنية بصوت رفيع مثل أسلاك النحاس الأصفر:

obeikan.com

" هاتولي اتنين كيلو كباب وكفته من عند محمود الكبابجي وإزازة بيره مشبره"

يتكفل بكل ذلك فرج. وفي انتظار الوليمة يتنبأ لكل منهم بصوته الغريب المختلف بما ينتظره في قادم الأيام. كلما أفحش القول في تنبؤاته كلما زاد مرحهم وصخبهم

" هتموت محروق يا فرج، ياللي بتغرف من قِدرة حموده".

" ايه بقى الكلام دا؟ طب خلاص مفيش كفته".

يزوم ويرعد فيقول فرج: " خلاص خلاص سوكه راح يجيبها"

" كل العيال هتطلع حراميه سلامه، منى. ممكن اسخطهم برصين"

" فاكريني أنا بس الملبوس؟ الحاره كلها ملبوسه. الكل شايل بس مش قايل"

" وانت يا نجيه هتخلفي واد ولازم تسميه مايكل".

" مايكل؟ بس دا اسم مسيحي يا ست كهرمانه. "

يزوم وينتفض فتستأنف نجيه التي كانت حاملا بالفعل في شهرها الأخير

"خلاص خلاص مايكل"

رد فرج "بس هندلعه نقول له يا ميكا"

تأتي الكفته فتظهر أذكى حالاته، في منطقة وسطى دقيقة الميزان بين الوعي والتلبس حيث لا بدَّ أن يفيق ليأكل وأن يظل ملبوسا لئلا يشاركه الطعام أحد.

obeikan.com

ينهش الكباب كالأسد ويزوم وينظر بجانبي عينيه كالأسد ويأكل كالأسد ما يشاء وحده. ويتطوع إبراهيم المكوجي ليبرر حالته:

"كهرمانه حولته أسد"

نزع فرج مبسم الجوزة مسرعا وقال:

" طب اهربي انت يا حوريه"

غرقوا جميعا في الضحك والسعال فقالت حوريه:

" والنبي انت راجل عايب"

يضحكون ويسعلون إلى حد الدمع بينما شفاه سوكه وسلامه ومنى تتلمظ منتظرة بقايا الخال الشره ويمصمصون ما يتساقط من عظم.

يخرج الخال المتخم بالكباب وبالحشيش ليشم الهواء ساعة أو ساعتين ويدلف حموده ضائعا مسطولا تحت البطانية، مسددا بتغافله ثمن العشاء والمزاج والكباب وتسيير الحياة بشكل عام، ثم يغدق فرج على العيال مالا ليخرجوا في فسحة ويسند إبراهيم المكوجي حورية من وسطها اللدن المتراخي ويذهبان للتبرك في ضريح سر الدين الفلواتي قبل حلول الفجر.

في إحدى الليالي عاد عاريا تماما متلبسا بالصمت تسيل الدماء من رأسه وجسده. على ظهره خطوط طويلة من الدماء والسجحات. اتجه إلى الركن الذي ينام فيه وبكى كثيرا كالأطفال. كان واضحا أنه تعذب وجُلِد وسُحقط وزحف وتعرض للمطاردة والقذف بالطوب والزجاج. لماذا لم تحمه كهرمانه؟ أسعد

obeikan.com

الموقف على صعوبته سلامه ومنى، أضحكهما شقاؤه ورؤية مؤخرته الضخمة العارية فزجرتهما نجية بعنف وهي تكبس مواضع الدم بالبن وتهذي بتميمة الغراب. وقف عاريا بين يديها كالطفل ونام في هذه الليلة ولم يقم بعدها. آخر ما سمعوه كان بكاؤه الهائم في الليل.. بكاء ممزوجا بالعتاب والضباب، والألم.. ثم مات.

قالوا إن الجنية سحبته تحت الأرض.

وأنجبت نجية ابنا أسموه مايكل.

opeikan.com

العمدة

في سطح آخر بيت بالحارة، بيت الساعاتي، كان العمدة راسخا وقديما كقدم الحارة نفسها. لا يدري أحد متى جاء مصطحبا ابنه صفوت ولا من أي البلاد هو. لعله أقدم ساكني الحارة منذ عهد الساعاتي وأول العهد بالوقف والأقدمين؛ أم يوسف وإبراهيم فريجه وأبو فرج الاهتم واللورد مراد، الذين بنوا بيوتهم بالأحجار الكبيرة العتيقة على غير اتفاق والذين علموا حارتنا الحكمة وزرعوا العرف والأصول بين حبات ترابها ولم يعودوا الآن سوى قصص غابرة..

أم يوسف التي تسكن بالدور الأرضي المرتفع لم تكن تتحرك بجسدها العجوز المكتنز من أمام شباكها الحديدي العتيق المطل على الحارة. جالسة في نفس الموضع في كل الأوقات، يجلجل صوتها "الحياني" وهي تسب الرائح والغادي وتدعو على الجميع بالشوي والخلود في نار جهنم وتحك ظهرها "بعصا الغلية" وترعب الأطفال في الليل حين تفك الإيشارب فينحسر عن شعر أبيض كالسحاب، قصير ومنكوش كرءوس النخيل في ضوء لمبة كيروسين عتيقة. وتقذف بالشبشب من يتجاسر بالنظر أو التعليق. كانت تملأ الوجود بالصياح لتهزم وحدتها ويشعر الناس بوجودها وكان شتمها وضجرها وقذف شبشبها مضحكا ونادرة يتندر بها الناس.

وأمامها يسكن أبو فرج زوج أم فرج القاطنان بنفس الطابق، احترق وجه أبا فرج حين انفجر وابور الغاز الحديث حينئذ ولم تنْج سوى عين واحدة. هاجر

obeikan.com

كل أبنائه إلى العراق وليبيا ولم يبق معه إلا أم فرج حتى ماتا تباعا ولم يعد أحد من أبنائه فتكفل العمدة والكاشف القديم بمراسم الغسل والدفن في مقابر الصدقة بالسيدة نفيسه. وبعده بقليل من الأيام اشتم الناس رائحة شديدة العفن وانتبهوا إلى أنهم لم يسمعوا شتم أم يوسف ولم يروها منذ أسبوع حتى اكتشفوا أن الرائحة التي ملأت خياشيم الحارة وفرت من هول نتنها الكلاب والقطط كانت لجثتها.

أما البيت الثاني ففي طابقه الأول سكن عم عبده، صاحب محل الخردوات برأس الحارة، وزوجته وأبناؤه الثلاثة ماجدة ورضوان وعاطف.. أكبر ذكريات هذه الأسرة كانت تتمثل في حفلات الزار الشهرية التي تقيمها زوجته أم هاشم، يعرفها الناس بهذا الاسم رغم أنه لم يكن لها ولد اسمه هاشم. توقفت عن حفلات الزار تماما بعد أن أنجبت ابنها الأول رضوان.

وبالطابق الثاني تسكن أسرة عم ياسين وهي أسرة صامتة شديدة النظام، وسط في كل شيء، يتحركون ببطء ويتكلمون بهدوء، ساكنون كالتلال المرسومة في الصور الزيتية، لم يكن يشعر بهم أحد طوال عشرين عامًا حتى ألقى ابنهم الشاب عادل ياسين بنفسه من الشباك فسقط على رأسه ولم يمت لكن عينيه جحظتا بشكل غريب ثم عادت الأسرة إلى نفس الإنتظام والنظام.. لعل النظام والصمت هما اللذان دفعاه إلى إسقاط نفسه لتجربة الصخب الذي قد يفعله موته بهذه الأسرة.

وبسطح هذا البيت يسكن عم مراد، أسموه اللورد لحكمته وتأنقه، الموظف

الوحيد الذي عرفته حارة سر الدين الفلواتي وزوجته الرائعة دولت وأبناؤهما الشامخون؛ محمود وسيد ومديحة، المحترمون رواد المساجد، الموقرون من الصغار والكبار، الأسرة التي أخرجت المهندس والطبيبة والمعلم والتي أثبتت أن وجود أم عظيمة كفيل بأن ينتظم كل مسارات الحياة ويحتوي تقلباتها ويوجه دفتها، سكناهم بسطح أعلى بيت كان كالتاج الذي ازدانت به الحارة في ذاك الزمان. زوجها السيد مراد كان كالملك المتوج، نزيهًا مكوي الملابس مهندم الشعر والخطو، مفروق الشعر من الجانب بدقة تحت دهان لامع من الفازلين العطِر. أول من أمسك الساعة الأنيقة المدلاة من العروة إلى جيب الصديري في الحارة. لكل بدلة صدرية تناسبها، يحلو للأطفال أن يسألوه عن التوقيت ليروا أناقة الغطاء الفضي الرقيق وهو ينكشف عن الآلة السحرية التي يخرجها بهدوء من الجيب الصغير.

مشروعات اللورد مراد ودولت هانم الخيرية القديمة بالحارة ظلت باقية بعد رحيلهم الإجباري؛ دهن البيوت الثلاثة جميعا بلون موحد، وترميم الشقوق البالية بالمباني الثلاثة وعامود "القلل القناوي" على ناصية الحارة، وإعادة بناء ضريح الفلواتي حين أوشك على الإنهيار في الزمن القديم، وفض النزاعات وترسيخ الأصول والمحبة. هجروا الحارة جميعا إلى منزل رائع بحدائق القبة بعد موت اللورد مراد وقطع ساق السيدة دولت بعد أن أفسدها مرض السكري وصار النزول والصعود مستحيلا. وافتقد عهد الحارة القديم بفقدانهم المسك والعنبر والنظام السامي، ولم يبق إلا الأذناب، وتزوج حموده نجية وانتقل بها للعيش في بدروم ذلك البيت في اليوم التالي.

وببيت الساعاتي الأخير المواجه للضريح استقرت أسرة حسن الساعاتي. اشترى البيت من مالكه الأرمني واشترى منه أيضًا محل الساعات وورث مهنته. ماتت زوجة الساعاتي تاركة له حوريه في التاسعة عشر. حوريه التي ألهبت القاصي والداني بقدها وحسن تعهدها له "ودلعها" الذي جعل ناصية الحارة مركزا للشباب والرجال ولم يخل بيت الساعاتي من زائر عند كل آذان عشاء وتقدم لها العرسان من كل الأطياف ورجال الأعمال لكنها ضنت بجمالها عليهم جميعا ورفضت الخطاب تباعا إلى أن أدركها العنس وسوء السمعة وبلغت الثلاثين ومات الساعاتي فرضيت كارهة بعلي العراقي النجار.

وفي الشقة المقابلة بالدور الأرضي يسكن الحج حامد وزوجته رقية، واحة المحبة وملجأ الضائعين، الحنان والعطاء بلا مقابل. رجل وُقي شُح نفسه وملأ الله قلبه بالرضا واليقين فانطبع ذلك على زوجته وحياته.. حولتهما مأساة وفاة ابنيهما إلى قوة عطاء حانية لا تتوقف عن المنح والكرم. لابد لمن يدخل شقتهما أن يأكل ويشرب كوب شاي بالحليب.. بابهما لا يغلق أبدا يأوي إليهما من يأوي بلا استئذان فلا يتضجران ولا يسأمان بل تشمله الست رقية بالدعاء في الخروج والدخول بصيغ دعائية لا يتقن تراكيبها سواها.

بالطابق قبل الأخير يسكن الحج حسبو، الشيخ الضرير، وزوجه وأبناؤه الثمانية. أبيض الثوب والشعر واللحية، أشبه في عيون الأطفال بالملائكة "اللي لابسين أبيض ف أبيض". ينزل قبل كل صلاة وحده يتحسس الطريق دون أن يصحبه أحد من أبنائه الثمانية. يذكر سلامة أنه كان يتلذذ بالعدو إليه وهو دون السادسة

ليصحبه إلى المسجد وينتظره حتى يفرغ من صلاته فيعيده إلى البيت وينعم عليه الحج حسبو "بملبسة" أطعم من كل مذاق بالدنيا، ويذكر صدمته الشديدة حين طلب الشيخ منه ذات مره أن يصحبه إلى معرض سجاد المعلم شندي فتبادل الشيخ والمعلم حديثا طويلا كانت نهايته قول الشيخ في استكانة وقد دلى رأسه جانبا "نحن أهل الله وخاصته" فأخرج المعلم من درج مكتبه ورقة بعشرة جنيهات ودسها في يد الشيخ حسبو فكفر سلامة من يومها بالمسجد والملائكة والمِلَبس وثواب مساعدة العميان.

وعلى سطح ذلك البيت سكن العمدة وابنه الضخم ذو العشرين عاما، صفوت. كان عمره حين وصلا الحارة سبع سنوات. رباه بالبطش والمنع والسباب وحرمه من ملاعب الصبا ومنبت الأسرة فكان دائما في الحارة غريبا لا يألف ولا يؤلف. كلاهما أغرب من الآخر، فلا هذا يصلح أن يكون العمدة بطوله ونحوله وبندقيته العتيقة وطربوشه الذي يضاهيه طولا ونحولا، كأنه رجل آخر واقفا فوق رأسه، ولا هذا يصلح أن يكون ابنا بحال من الأحوال بشكله العضلي الصارم وشنبه الكث العريض وصوته الخارج من جوف الجبل.

يقولون إن العمدة باع فدادينه وطينه ثم هجر الأرض التي نشأ فيها فداء لحب كباريهات شارع الهرم وراقصاته وخموره وأنه بسبب هذا الحب ضيع كل ما جاء به من القرية. كانت العلاقة بينه وبين ابنه في أول عهد الترحال صياحا وشخطا وضربا من جهة الأب وبغضا وكمدا من جهة الابن. لم يصحبه العمدة من تلك الأرض البعيدة إلا لخدمته لذلك لم يكن يتصور أبدا أن تكون له متطلبات خاصة

به كطفل، وكلما طلب شيئا كان جزاؤه الضرب بالنبوت. وحين اشتد عود الابن وانحنى ظهر العمدة فإن شيئا غامضا صار يحدث فوق هذا السطح واختفى العمدة تماما. لم يعد يظهر سوى صياح الابن وصوته الغليظ الذي يملأ الحارة ويغالب صراخ الممسوسين. كلما حاول أحدهم أن يفك هذا اللغز طرده الابن صفوت قبل أن يصل للباب.

مر قبل ذلك بأطوار غريبة ومتباينة فكان أصغر من شوهد بالسيجارة في حارة الفلواتي، وأحيانا هو المتدين شديد الصرامة والالتزام حتى أنه تسلم إقامة الشعائر والآذان بعد وفاة الساعاتي ثم انقلب طوره تماما فأدمن الشراك والعراك وأولع بالحط من شأن الكبار بالبطش والقوة وأولع برياضة رفع الأثقال فاشترى من سباك بشارع المستشفى مترا ونصف ماسوره نصف بوصة وصفيحتين فارغتين ملأهما بالأسمنت ثم وضعهما على طرفي الماسورة واستخدمها كرافعة أثقال.

ولصفوت عادة غريبة حين يصيح بالناس، فهو ينظر للأعلى ويصيح فيختلط الأمر على محدثه أيصرخ فيه أم في شخص عند السماء، ثم إنه يسحب ريقه بين جملة وأخرى بصوت عال يشبه فحيح الأفاعي ثم ينقلب عند نهاية صياحه إلى وحش ضخم يضرب محدثه أيا كان (لا يمكن اتقاء هذا التحول مادام قد بدأ الصياح) فصار بمرور الوقت عفريت الحارة الإنسي الذي يخاف بطشه الجميع. استخدم البندقية لصيد الحمام وترويع الحارة.. في الليالي الشتوية الباردة المطيرة يطل على الحارة ويستهويه الصراخ وشتم الناس وضرب الرصاص

فيخرج صوته الجهوري أشد رعبًا وهولاً من طنين الرصاص.

نزل العمدة ذات صباح يجري كالمجنون بملابس مبتذلة تحتيه. كلسون ضيق وصديري أبيض فوق لحمه الأحمر. كانت المرة الأولى التى يراه فيها الناس متهدلا بغير طاقيته وبندقيته التي لا تفارق كتفه. كان يجري حاملا قميص صفوت المغسول يفرده في الهواء ليجف وهو يرجو أن يجد إبراهيم المكوجي قد فتح دكانه ليكوي القميص قبل أن يستيقظ صفوت.. وقبل أن يصل إلى نهاية الحارة ابتدره صوت صفوت الأسطوري من فوق السطح وهو يصرخ فيه "إن مرجعتش بيه مكوي" سحب ريقه سحبا طويلا وتعلق بصره بالسماء "أحسن لك مترجعش"

لم يكن إبراهيم المكوجي قد فتح حانوته بعد.. ظل العمدة يجري يمينا ويسارا باحثا عن بؤرة شمس فاردا بيديه القميص الذي غسله بنفسه في الليلة السابقة، ولسوء حظه في هذا النهار الشاتي رفضت الغيوم أن تعلن عن تلك البؤرة الشمسية فوقف ساكنا مادا يديه وصفوت بالأعلى يصيح ويسحب ريقه وينظر إلى السماء حتى تطوعت نجية بحل بسيط وفرعوني قديم لتجفيف القميص.

فردته فوق وابور الجاز ومررته فوق النار قطعة قطعة، بدأت بالصدر ثم الكمين تباعا ثم الظهر وأعادت الكرة مرتين حتى أوشك على الجفاف. خاف العمدة أن يطلع بالقميص فأرسلته نجية مع ابنها سوكه، كان الفتى الصغير يمني النفس برؤية أي سطح يعد من عليه أفراد سرب الحمام، كان يريد أن يرى الحارة من أعلى بيت فيها سئما من سكناو في أوطئها وأدناها.. لكنه كان خائفا من صفوت.

obeikan.com

تناوله صفوت منه وبينهما درجتان على السلم ثم صفعه على وجهه صفعة ظل يعاني ضراوتها أسبوعا كاملا وطنت أذنه وظلت متأثرة بها حتى نهاية عمره. لم ير الحارة من أعلى ولم يعد أسراب الحمام. اختبأ بالضريح حتى نزل صفوت.. لا يدري لماذا تذكر في ذلك اليوم عم مراد.. قال إن هذا لم يكن ليحدث لو كان موجودا ولم يكن يعرف كيف يداري خجله أمام الناس.. وأصابه التهاب رئوي مات على إثره بعد أسبوع واحد.

*****

استمر صفوت في الحارة كأسطورة مرعبة لا يقربها أحد ويحرص على تجنبه الجميع. ينزل من سطوحه شامخ القد عظيم البنيان متأنقا يقول لسان حاله "يا أرض اتهدي ما عليكي قدي" ويعود في الليل البهيم مصطحبًا صاحبة أو صاحبًا وتنتهي السهرة دائما بسماع صراخ يصرخه الصاحب أو تصرخه الصاحبة.. كلهم يصرخون بنفس الوتيرة كأنما يتعرضون لنفس الدافع.. وكلهم رجال ونساء على نفس الشاكلة.. يتغيرون باستمرار ولا تتغير السحنة ولا يتغير الصراخ. لم يكن سكان الفلواتي يعبأون بالصراخ فصفوت يصيح وضيوفه يصيحون وكهرمان وكهرمانة يصيحان.. ومن يدري.. لعل سر الدين الفلواتي نفسه يصيح حيث هو.

*****

كهرمان

يشق الليل عواء ماجدة. يتكور الأطفال الثلاثة، سوكه وسلامه ومنى، في ظلام الغطاء متجمدين من الرعب. تتمنى الحارة ألا يقلب المارد أعاليها سافلها.

كيف يحتمل جسمها الهزيل المارد الجبار؟

دار بها أبوها الحاج عبده الخردواتي على المساجد والكنائس فلم يجد لها شفاء. قال عوف إنها زوجة لكهرمان شقيق كهرمانه. التبس الحق بالباطل ووصل أحد الشيوخ في ملابس متمدينة يرتدي الجينز وقميصًا أخضر وحذاء سيفتي ضخم لكن عينيه كانتا تشعان بريقًا غامضًا. بيده كيس يحتوي نوعًا من البخور وسحرًا يسطع في الظلام. طلب قصعة وفحمًا مشتعلاً وبطة سوداء الريش وكاسيت.

أجلسها أمامه وبيده كوب ماء عزم عليه وقرأ من خواتيم السور وهمهم بكلمات غامضة وهي مغمضة العينين كأنها لا تسمعه ثم رش عليها الماء فانتفضت ملسوعة متمردة، وبدأت صراخًا يخرج من الأعماق. لم يستطع شقيقاها رضوان وعاطف السيطرة عليها لشدة طرأت عليها وارتخاء قبضتيهما بفعل الخوف فحاول الشيخ المتماسك ردها إلى الكرسي. قبضت يده اليمني على جبهتها، وأخذ يترنم بالعزائم وهي تزوم في وهنٍ متنازل. أجلسوها وقد سادت في نفس الشقيقين حالة من الرعب والتقديس للشيخ المتمكن.

أخرج من كيسه سماعتين ووضعهما على أذنيها ووضع بالكاسيت شريطا عليه سورة البقرة كاملة. رفع الصوت إلى أعلى درجة. كلما ضجت من الصوت العالي

obeikan.com

دفعت السماعات عن أذنيها فقال:

"انظروا إنه لا يطيق سماع القرآن"

ست وثمانون ومائتان آية كاملة. لو رفعوا السماعات عن أذنها لارتج زجاج الشبابيك. أعياها الصوت والسماع فصرخت من عمق عمق الروح والقلب وانهارت.

انتهت الجلسة وقد تملكهم جميعا إعياء شديد فذهب الشيخ. قرر أنها تحتاج جلستين أخرتين.

*****

في الجلسة التالية كانت في منتهى الجرأة والاستهانة، جلست مائلة على الكرسي تهتز باستهتار، وعلى جانب فمها ابتسامة عابثة ونظرة عين تفيض امتهانًا ومكرًا. دلت رأسها ورفعت عينيها وظلت تزفر بأنفها ضحكة مهتزة من غير صوت. سخرت من الشيخ الشاب بشدة واستهزأت بقميصه المخطط وقامته القصيرة. علا الجدال بينهما واختلف صوتها. تبادلا الشتم والتهديد بالحرق. طلب من المتحدث إليه أن يخرج فرد الصوت بلغة عربية فصيحة:

" لن أخرج إلا من عينيها."

طالبه الشيخ بالخروج من إصبع القدم فرفض الصوت الخشن فلطمها الشيخ، بدءًا التدافع.

قال له رضوان متأثرا بنفس اللغة:

obeikan.com

" دعه يخرج"

فأجابه الشيخ

" لو خرج من عينها لفقأها "

أخرج من كيسه خرطوما كالذي يضربون به الحمير في مطالع الكباري، وطالب الشقيقين بتكتيفها وانهال عليها ضربًا في كل مكان مُرددًا نصوصًا يحفظها، والصوت يصرخ وكلما صرخ وتمرد أحكم الشقيقان السيطرة فيزداد صراخها والشيخ أيضا يصرخ ويركلها حيثما اتفق.

من الحارة سمع عضمة السروجي الصوت فهرع نحوهم ودفع الباب فظن رضوان وعاطف أنه جاء للمساعدة، ولكن ما أن رأى حالة ماجدة حتى التف وتجمد وعوى عواء حلقيا غامضا وتشنج وغارت عيناه ثم أقبل على الشيخ مطبقا بكلتا يديه على رقبته. كاد الشيخ يلفظ أنفاسه وهو يردد آية الكرسي. احمرت عيناه وعينا عضمه الذي استحال هيئة غير إنسانية. لم يكن بين الشيخ وبين الموت غير لحظة لولا أن الشقيقين أنقذاه تاركين ماجدة التي تكومت كالمشلولة وأخذت تصرخ بصوت غليظ آت من أعماق خرافية:

" سيبوه سيبوه. ملكوش دعوى بيه"

استطاع عضمه على نحوله أن يفوقهم جميعا، تملكته قوة عاصفة. كاد أن يفتك بهم لولا أن آخرين صعدوا من الحارة، ضمنهم حوريه، ضربه الشيخ بخشبة فوق رأسه من الخلف فسقط على الأرض وما زالت ماجدة تصرخ وتشنج نشيجا

obeikan.com

غريبا وقد تكومت في الأرض عارية الفخدين.

لم تكن قادرة على الحركة فأخرج الشيخ، الذي أراد استرجاع هيبته، كوفية من كيسه واستدار خلفها وخنقها بها، شدد الخنق حتى احمر وجهها ثم ازرق فألقاها على الأرض كالخرقة.

صرخت فيه حوريه

" ماخلاص ياخويا انت بتعالجها ولا بتخلص عليها؟ استري نفسك يا حبيبتي"

جثت على ركبتيها تحتضنها وتغطيها بشالها الوردي. لكنهم ازدروها متجاهلين كأن لم يسمعوها.

طلب الشيخ منهم أن يطفئوا النور فقام عاطف بينما سيطر رضوان على الذراع التي تركها أخوه وأخرج الشيخ في الظلام شيئا من جيبه وردد ترانيم غريبة اللغة وماجدة تئن من ألم الضرب وإحكام شد الشقيقين على يديها وتناديهما في وهن باسميهما بصوتها العادي.

عذب عاطف الشعور والتساؤل الغامض. أيقسو في شده على الجن المارد ذي الصوت الخشن أم يحنو على أخته الهزيلة ذات الصوت الناعم؟ لمع في الظلام شيئ كالبرق وألقى الشيخ البخور في قصعة النار وارتمى مجهدا وهو يكبر ويقول:

"الحمد لله. الله أكبر. ردد الحاضرون التكبير وقال الشيخ المرهق "خلاص خرج"

obeikan.com

سادت الغرفة رائحة نتنة جدا وحادة. شموها جميعا وفر معظمهم من نتن الرائحة. سكنت ماجدة من شدة الألم ومازال عضمة ينتفض. تجنب الشيخ أن يقربه أو ينظر إليه. أخرج من كيسه حفنة من الشيح وماء النبق ووضعه على الماء وعزم عليه قليلا، وأوصاهم أن تشرب من هذا الماء ثلاثا بعد صلاة العشاء، ثم تستحم بسبعة لترات من الماء على كل لتر حفنة ملح ملء اليد. وتتركه ينشف على الجسم ثم تستحم عشية اليوم التالي. نتف ريش البطة السوداء ونثره حولها في دائرة وطالبهم بإجبارها على المكوث فيها حتى تستحم في اليوم التالي.

قال عاطف وهو يشير إلى عضمه " وده"

رد الشيخ " دا شديد. لا شأن لي به"

هدءوا قليلا وقام الشيخ ليلم عدته، وهم يحمدون الله أن أذهب عنها البأس وجلسوا يتسامرون قليلا. سألوه عن تفسير اسم الشيخ الفلاتي صاحب الحارة فقال كأنه يقرأ من كتاب إنه كان كافرا يريد أن يرجع الناس إلى عبادة اللات فسُمي الفلواتي نسبة إليها. سخر له الشيطان أتباعًا وبعض الكرامات فصدقه المهرطقون والزنادقة. شرب يوما من ماء النيل في لحظة مقدسة في الزمان يتوقف فيها النهر عن الجريان فمنحه ذلك القوة والسحر والحظوة. كان يخطو فوق الماء ويمسك جمر النار الملتهب بإصبعيه، اختفى من الأرض فظنوه مدفونا تحت هذا المقام حيث عاش وحيث مات.

خرج رضوان مع الشيخ وظل عاطف باقيا مع أخته موجوع الروح من قسوتهم

obeikan.com

عليها، ومن أثر الضرب على وجهها وأنحاء جسمها المنهك. تمزقت ملابسها وانتشرت كدمات على بشرتها وشغلته فكرة قبضت على قلبه إذ كيف يسمح بتعريها هكذا في وجود كل هؤلاء.

عاد رضوان فوجدهم قد ذهبوا بعضمه، ووجد ماجدة ملقاة على كرسيها كالخرقة البالية.

"الشيخ دا نصاب. عايز ميتين جنيه. خد مايه بالعافية. وعلبتين سجاير".

"نصاب ازاي. انت ماشفتش عمل ايه"

"كلهم بيعملوا كده. بيحضروه ويضربوها ويمشوا"

"طب والنور. دا العفريت طلع. انت مشمتش الريحه؟"

هنشوف. خلينا مع الكداب لحد باب الدار"

اكتشفوا أنه أخذ البطة معه.

شد الملح جسمها شدا قاسيا. كاد جلدها أن يتشقق. ألم جاف حارق لم تشهده من قبل. ظلت لليلة التالية مشدودة يابسه وقد افترشت مرتبة على الأرض في الدائرة المرسومة بريش البطة كمن وضعت في الجبس حول سياج أسمنتي تتجنب الحركة. بالت حيث نامت. وخشيت أن تفتح فمها خشية ان تتشقق بشرتها. تصلبت كالوتر وسقطت فوق خدها دموع خافت أن تمسحها لئلا تكشط جلدها بأصابعها. وكعادتهم باركوا ألمها جميعا أملا في الشفاء.

obeikan.com

مرت ليلتان وخرق الليل عواء وصراخ لم يدر أحد مصدره. قالوا إن كهرمانه جاءت تبحث عن عوف الليبي ورَجَّع الظلام الصدى فرددت ماجده صراخا متقطعا.

وفي بيته البعيد كان عضمه متشنجا ملسوعا.

*****

أخذها أبوها إلى إحدى الكنائس مترامية الأطراف في الحوامدية، وصلا إليها بعد مشوار عصيب أرهق الأب الطاعن والفتاة النحيلة. ركبا المترو ثم ميكروباص ثم عربة نصف نقل. وجدا كثيرا من الممسوسين هناك من كافة الملل والطبقات، كلهم على الأرض ساوى بينهم المرض والأمل. رص الأب مكاريوس النساء أمامه جالسات ومر أمامهن واحدة بعد الأخرى وبيده الصليب ورش عليهن ماءً مباركًا معطرًا بترانيم لم يفهمها عم عبده فارتمين جميعا على الأرض يتلوّين كالأفاعي ثم ردد ترانيم أخرى فسكنَّ جميعا. واختلى بماجدة ساعة ثم خرجت كالمخدرة.

سأله الشيخ ذو اللحية البيضاء المرسلة عن فتى اسمه شادي فأجابه الأب أنه تقدم للزواج منها منذ عام لكنها رفضته. فقال له الأب مكاريوس إن شادي هذا قد "عمل لها عملا سفليا نجسا" أخفاه في بطن سمكة ودفنها عند جبل الطور بصحراء جنوب سيناء وقد آنس خادم السحر من طول سكناه بالجسد الجسد وأنه، الأب مكاريوس، قد استطاع باسم المسيح فك العمل وأن ماجدة

شُفيت تمامًا.

سأل عم عبده الأب مكاريوس عن الشيخ الفلاتي فقال 'إنه كان قديسا كثير الفلتات فسماه الناس الفلاتي. قابل بين الأرض والسحاب من تسمونه أنتم الخضر ونسميه نحن أبا السيوف. مده الرب بسلاح الرهبة في قلوب أعدائه حتى أبادهم بمروءة كلمته."

عاد عم عبده سعيدا ضاحك الوجه بعد طول عناء، لم يكن شيئ يمتعه كبذل نفسه من أجل أبنائه، لكنها منذ خرجت من حجرة الأب كئيبة غامضة. لازم الحزن والهزيمة عينيها. لعلها كانت أسعد في الذهاب من الرجوع.

سألها عما بها، لم تشأ أن تكدر فرحته فقالت " لاشيء"

سألته. "بابا، هو ربنا اللي بيشفي ولا سيدنا المسيح؟"

"ربنا طبعا يابنتي، بس أنا لو قالولي إن شفاكي عند إبليس هاروح له"

استأنف وقد غلبته دموعه "استغفر الله العظيم. سامحني يا رب".

إرث عائلي قديم مترسب في قلبه عن غضب الأسياد. زوجته المرحومة الحاجة أم هاشم كانت ترفل في ثياب بيضاء وتبدو كالملائكة وهي "تفقر" في الزار خلف أبي الغيط على نقر الدفوف الصاخب حتى يسقطها الإعياء. زارٌ بعد زارٍ لترضية الأسياد حتى رزقها الله بخلفة الذكور.

*****

بعد أسبوع رددت ماجدة الصراخ أكثر من ذي قبل. وحاولت أن تلقي بنفسها من النافذة. شيخان وقسيسان والأمور كما هي. تهدأ لأيام ثم تعود أسوأ مما كانت فيضربوها بقسوة بكل ما استطاعوا من قوة. وكاد أن يقضي عاطف عليها خنقا لولا أنها أخذت تردد:

" أنا ماجده أختك. أنا ماجده".

اتفقوا جميعا على شيء واحد.الهروب من عضمه. لم يقربوه بتاتا. ينظر الواحد منهم في عينيه قليلا ثم يردد نفس الجملة: "اللي عليه خطير"

الشخص الوحيد الذي كان يستطيع السيطرة على عضمة كان سوكه. يلين في يديه ويذهب معه حيث شاء. فسر البعض ذلك بأن " الواد طالع لخاله. عوف الليبي" وفسر البعض ذلك بصداقتهما القديمة لكن الحج مصطفى والد عضمه لم يكن يعنيه أن يبحث عن تفسير، فهو يعرف أن ابنه يحبه وكلما أتته النوبة كان سوكه أول من يلجأ إليه فيستنيم عضمة لوجوده ويهدأ في حضنه حتى ينام.

openkan.com

جرشكل

يكره أباه منذ وعيَ.. لم ينس أبدا أن مرارة الحبس الأولى كانت على يديه. أخذه من يده إلى القسم وبكي مدعيًا أنه يسرقه ويضربه. اجتمع الرجال عليه.. أشدهم سطوة وقبضا كان صفوت، ابن العمدة، شنبه عريض كثّ وعضلاته حاسمة لا تليق بقبض على طفل. رجل واحد فقط من كل أهل الحارة دافع عنه بكل وهن، عم جرجس، أما أغلبهم فقد كانوا عليه شهودًا بكل قوة.

"الحقوني. سلامه عايز يضربني. الحقوني"

لم تدهشه حماسة اجتماعهم عليه واقتياده إلى القسم لكن ما أذهله هو قدرة أبيه على الادعاء. ظن أنه سيرحمه في النهاية، كان مطمئنا للخدعة فظنوه مستهترا. ظل مسددا لأبيه تلك النظرة الحائرة بين التحدي والتراخي والرجاء والعنفوان. استفزت الضابط أيضًا.

"مش قادر عليه يابني. قلت أجيبه للحكومة تربيه. ربيه انت يا بني"

قال للضابط يا "ابني" أما هو فكان المجرم. تفنَّن الضابط المتعاطف مع الأب المسكين في إرهاب الصبي ثم أدخله الزنزانة. ارتكب جريمته الأولى بفقء عين عوف الليبي الجديد. ليست نفس الهيئة ولا نفس الطريقة لكنها نفس النظرة، لا تدعي الحنان هذه المرة، لكنه التهديد والصدمة. فهم بعد ذلك أن الضابط أمرهم فقط بتهديده وتخويفه.

قضى ثلاثة سنوات في الإصلاحية. تعلم الصمت والحذر والنهش والافتراس. تطورت أدوات لعبته القديمة التي تلقن تعاليمها من الصبيان الأكبر في الحارة "جر شكل". يقف أضعفهم فيتصيد أي مار بالطريق فيذهب ليشنكله أو يشتمه.. أي شيئ، المهم أن يشتبكا فيطلع الرفاق من مخابئهم كخفافيش الطلام. ولعبة حرب الحواري، حارة تغير على حارة فتنتصر إحدى الحارات ويعود فرسانها بالغنائم؛ فِرَد الكاوتش والبلي والكازوز ونوى المشمش. والإغارة ليلا على سيارات الزفاف المزينة بالبالونات وخطوط الزينة. أكفؤهم من يفوز بأكبر عدد ويجري متفاديا سيارات الطريق.

أكثر ما افتقده بين جدران الإصلاحية كان المطر، صوت التقاء الماء بالأرض في المساء، خيوط الليل من ماء المطر تخرُّ على رأسه وبدنه وهو يدور ويدور ويجري وتغوص قدماه في الوحل ويسمع لهطول الأمطار نغمًا يخفق له قلبه. ويتذكر ضحكة كانت صافية لم تكدرها الأيام.

عندما خرج احتضنه حموده على باب الإصلاحية، واستكمل هو نفس النظرة حين رآه. ظل السؤال معلقا في عينيه ثلاث سنوات وقدم حموده لحظة استقباله إجابة خجلى:

"شفت. انت بقيت راجل. بقيت خشن. أنا كان قصدي يوم واحد"

خرج من الإصلاحية على غير ما دخل، فتى غامضًا وغاضبا طرق أبواب الرجولة، طويلا نحيلا بادي العضل لم تخل ملامحه السمراء من وسامة. لكن نفسه مرتابة ومريبة، مخيفة وخائفة يأبى الاندماج ويعشق الوحدة. أما الثقة

بالناس فقد ماتت قبل أن يدخل الإصلاحية بكثير.

أصبح شيئا آخر لا يعرفه هو نفسه. ظنِّينا لا يعرف الاطمئنان، لا شيء يتقيه، البطش وسيلة مُثلى لنيل كل شيء. تروي أساطير المستذئبين أن الإنسان يتحول إلى ذئب إذا ذاق لحم إنسان ممتزج بلحم القرابين. أكلته المساجين في الإصلاحية وأكلهم.

قال عم جرجس لحموده الأفيونجي "أنت الذي جعلت منه وحشًا"

لم تزره أمه نجية مرة واحدة بطعام أو شراب. كان يعرف حجتها ويسمع ذريعة قسوتها رغم البعد والأسوار "هو لاقي ياكل ويشرب وينام. الدور والباقي ع اللي بره"

تعرف هناك على الجوع الحقيقي. هوة سحيقة في البطن تمضغ الفراغ، جوع يوشك به صاحبه أن يأكل الزلط وتموت به الكرامة وعزائم الرفض، جوع يقتل الضمير ويستبيح الحل والحرام.. جوع يهزأ بالعتاب والخوف والمقدس.

وقبل الخروج بعام أكله جوع آخر جديد جعله يلعق الجدران ويشتهيها ويكاد يخرقها. اشتعل باشتعال جسده، نار تتلظى داخله ولا تجد لها متنفسا في ذلك الحبس والفراغ. جوع جعله كالمارد الذي ظل حبيس القمقم قرونا بعد قرون لا ينقذه أحد فأقسم أن يفتك بمن ينقذه. وكانت هي.

خرج المارد من القمقم فوجدها. أكلتها ناره أول ما أكلت ثم ماتت بغير أن تمنحه السماح. تصعد بالتهديد أو بالاعتياد. استسلامها مثل صدها لم يكن

مجديا، وقبولها كرفضها.. لم يعد غضبه محتملا ولم تعد تفعل في الحياة إلا ما يرضي غير نفسها. ثم توقفت عن الرفض أو حتى القبول. لم تكن تشعر في ذلك الوقت أنها كائن يمكنه أن يرفض أو يقبل أو يختار.

دربتها الأم على الإنصياع وقديما دربها الخال أن تتجنب أن تصير برصا ثم أخنعتها الحياة نفسها. متعة مُرَةُ المذاق لكن لها لذة، مقيتة كطعم العلقم لكنها شهية بطعم الدفء القديم، غائرة في زمن مضى ونظرة عين محمومة لجسد ضخم على كرسي خفي يزوم ثم يطير في السحاب. يزومان نفس الزومة عند ارتقاء القمة، ويذهبان إلى ذاك الزمان، ويفقس بيض الحمام ثم يطير في المدى. وفجأة. يحطان فوق أرض قاحلة. يلفظها وتلفظه في النهاية بكل مقت. وجهان ممتقعان.

" لماذا لم ترفض؟"

" لماذا لم تقاوم؟"

حاولا كثيرا أن يضعا حدا لهذا النزق المُر لكنه دائما يستسلم لأول طرقات رغبته. بعد السقوط الأول، وبعد الوعي بما كان. أصبحت كل أعذار العفاف ادعاء. تنظر إليه نظرة يكسوها السقم. يشعر بالخزي أيضا. وتغادر قافزة إلى أسفل. بضياعها، أحس أنه فقد كل شيء، ليته يموت بنفس القسوة. لماذا لم يخترْه الموت؟ لا يدري، وقد أوشكت ألف لماذا أن تقتله، لماذا هي وليس سواها؟ لماذا لم يستطع أن يرتدع عنها؟ وكيف احتمل تلك النظرة الكابية الحزينة في عينيها كلما فرغ منها. لماذا لم يستطع الله أن يشبعه بغيرها، ولماذا منحه كل

هذا الرضا وهو فيها. ولماذا ماتت هي وتركته ينوء بالسر وحده، تراه كل العيون وتشم رائحته النتنة وتستقذره الأماكن. ويهمس صوت خافت بداخله متمنيا أن يرحمها الإله. إذا كان موجودًا.

لماذا لم يكن ابنًا لعم عبده الخردواتي؟ ذلك الجار الفريد الساكن بالطابق الأعلى. منذ ماتت زوجته وهو لأبنائه الأب والأم معا. يطبخ ويكنس ويدلل ويعلم. عندما شاهدهم بعد خروجه من السجن امتلأ قلبه لهم بالإكبار والحقد الأسود معا. شكلهم المحترم، أناقتهم وأسلوب حديثهم، طريقة مشيهم، تدرجهم في مسالك التعليم، حتى صمتهم له مذاق. هل يمكن أن يحبس هؤلاء أبوهم؟ هل كوى باطن أقدامهم يوما بسكين محمي؟ أذاقوا يوما لسعة خرطوم الحمام الأحمر؟ أتحول مسكنهم يوما لغرزة يتناوب فيها الأغراب الحشيش والنساء؟ هل قطعت أسنانهم قطع المزاج ورصوها فوق رءوس المعسل.

*****

لا يفهم أحد كيف تتلاقى الخطوط في الحياة ولا أحد يستطيع تفسير عجائبها. ما الذي وضعه في طريق منى أو من الذي وضعها في طريقه؟ كيف واتتها الجرأة أن تقرب هذا اللهب الغشوم والقلب الصلد؟ أألقتها حاجتها إليه أم حاجة نجية؟ أألقاها في كل عبث ما كانت تلقاه من سلامه بعد خروجه من السجن؟ هل صارت بالفعل ريشة في مهب كل ريح؟

في عصر يوم حار بعد خروجه من السجن بعام، كان سلامه خاملا جائعا يستجدي الوقت أن يمر حين اشتبه عليه صوت صراخ منى فخرج يستجلي الأمر

فوجدها تخرج من بيت الساعاتي محمرة الوجه شعثاء الشعر متهدلة الملابس وبأعلى البيت يصرخ صفوت وهو يسحب ريقه بين شتمة بالعهر وأخرى بالقذارة. لم يسأل عما بها ولم يستوقفها بل عدا نحو عرين الوحش الذي يتحاشاه الجميع في وثبة واحدة وتلاقيا في باحة السطح الواسعة وبينهما من العمر ما يزيد عن الخمسة والعشرين عاما وفي الجسم ما بين وحيد القرن والغزال.

التقاه سلامة بوثبة دافعة بكلتا قدميه لو لم يصادفها صدر صفوت لوثب سلامة من السطح للأرض. سقطا معا لكن سلامة كان أسرع انتصابا وغضبا. ركله بقدمه في وجهه فكسر أنفه من لحظته واستسلم صفوت تماما لجرعة الدنيا كلها من الانتقام. اذهله في البداية تفوق هذا الفتى المتوحش الذي كلما تلاشاه لحقه كالكلب المسعور كلما اتقاه في خن التقطه فخرج يعدو من البيت متسقطا على السلالم ممزق الملامح.. وفوق السطح كان الغزال الصغير قد تحول إلى فهد وحشي يرقب فريسته الهاربة.. واختفى صفوت من الحارة إلى الأبد.

العِشَّة

عاد علي النجار من العراق خائبا ولم يعد طريق إبراهيم المكوجي إلى حوريه سهلا كذي قبل. عاد كسيرًا مفلسًا رغم أنه ذهب موفور الصحة كالحصان. سبعة أعوام في الغربة تبدلت خلالها أحوال كثيرة. سقط عنه الحكم الغيابي في جريمة سرقة لكنه سقط هناك في براثن جريمة أشد وعقاب أخزى. انتهك حرمة بيت عراقي في أثناء حرب الثمانية أعوام مع إيران، ولما عاد المقاتل وجد له أبناء تخطى أحدهم أربع سنوات.

لم يقتله العراقي لكنه أخصاه، وجرده من كل ماله وممتلكاته. وأجبر الزوجة على الانتحار ثم صار هو نفسه أفيونجي آخر في العراق، وصارت عائلة الأفيونجي في العراق تماثل عائلة الأفيونجي في مصر. الفارق الوحيد أن العراقي يخزن القات اليمني أيضا.

ربض علي النجار بالبيت بعد أن عاد فارغا مهزولا. أحرجته مواجهتها في الليلة الأولى ثم الثانية ثم الثالثة ثم بكى بين يديها بكاء مُرا يقرب العويل وقص عليها قصة الحرب والموت والدمار الذي لحق كل شيء في العراق. استمعت له باهتمام. كانت تدرك أنه لم يعد طبيعيا وتشعر، مع اختلاف صحته ولكنته وطريقة مشيه، أنه لم يعد علي النجار "بتاع زمان"، الفحل الذي كان يرضيها حتى الجفاف والضجر والذي كان يُحمي مبرده ومنشاره بماء النار، ويدق المسمار الصلب

الشديد دقتين متتاليتين بالشاكوش فيسكن في الخشب. ويسكن الخشب، وتعلم، منذ أخبرها أبوها المؤذن، أنَّ الجِمَالَ تنخ وأن الجبال ستكون يومًا واهنة كقطن منفوش.. قاطعته قبل أن ينهي قصته قائلة:

"طب قوم والنبي يا خويا بيِّت الفراخ عشان مش قادرة. ضهري بيوجعني وخايفه استهوى"

وأصبح مسئولا منذ هذه الليلة عن كل ما يتعلق بالفراخ بدءا من قوقأة الصباح حتى مبيتهم في العشة الخشبية التي بناها قديما بين بيتها وبين ضريح الفلواتي. واستعملته في كل حوائج البيت إلا الملابس، فقد كانت نظيفة تعشق الغسيل بصفة خاصة وتذهب هي بها إلى إبراهيم المكوجي.

" وبعدين يا حوريه. المكواه سخنت والهدوم هتشيط"

" اتقل. متبقاش خفيف"

وتلبستها الجن في الليل.

*****

ذهب إبراهيم المكوجي إلى عم عبده يزف إليه البشرى.

"عندي ليك يا عم عبده هدية فيها الشفا. وهتدعيلي. واحد اسمه الشيخ صمويل سره باتع"

"عارفه. ابن عمك جرجس. بس يابني. هو شيخ ولا صمويل؟"

obeikan.com

"سيبك م الشكليات. خليه بس يشوف ماجده وسيب الباقي على ربنا"

وصل صمويل وإبراهيم بصحبة عم عبده المكلوم بابنته في غيبة رضوان وعاطف. لم ينس أن يحضر معه عصا غليظة وبعض البخور.

أحضرا ماجدة التي لم يعد أحد يعبأ باعتراضها وصار الوهن والذهول سمة دائمة في عينيها. حدثها صمويل قليلا فلم يتغير مظهرها ولا انطواؤها ولا حركت ساكنا. كان معنى جديد في عينيها هذه المرة حاضرا: " لا تبدأ بالله عليك لعبة تمتعك وتنهكني".

طلب إبراهيم المكوجي من أبيها أن يخرج معه وسدد نظرة لصمويل مفادها أن يفعل ما اتفقا عليه. لم يتغير صوت ماجدة ولم تعبأ عيناها بالمعالج الجديد. ظلت واهنة على كرسيها صامتة كمن لاينتظر سوى العبث. ثم علا صراخها من أثر الضرب بالعصا. صوتها هي وصراخها وصل لعم عبده، أراد أن يدخل لنجدتها فأوعز إليه إبراهيم متظاهرًا بالألم أن ينتظر.

لم ينجدها من قسوة الضرب غير وصول أخيها عاطف فتوقف الشيخ صمويل عن الضرب قائلا بلهجة خبيرة:

"جلسة واحدة مش كفاية. هات ربع كيلو شيح وكيلو ملح تستحمى بيهم في العشا. ميكونش ساعة العصاري وتلم المياه وترشها تاني يوم في الشقه بعيد عن الحمام، خللي بالك بعيد عن الحمام. الحمام مكان نجس"

وخرج الشيخ صمويل وإبراهيم متباطئين في الحارة.

انتابت حالة الهياج حورية في نفس لحظة خروجهما وأخذت تتلوى وتهذي فاستنجد بهما علي العراقي "كما أسماه الناس" فوافق الشيخ بعد إلحاح ودخل عليها ومعه إبراهيم بينما انتظر زوجها علي بالخارج لئلا تتلبسه العفاريت الخارجة منها كما أنبأه شيخ صمويل الذي لم يدخل بعصاته الخشبية.

وكانت الممسوسة تتلوى على سريرها في قميص أرجواني قصير عار وقد تهدل شعرها الناعم. وجهزت للعلاج شريطًا موسيقيا راقصًا. ولم يسمع إبراهيم الواقف على الباب صراخا ولا أصواتا خشنة. بل أنينا غامضا متصاعدًا تئنه ثلاثة عفاريت خلفهم موسيقى ناعمة.

صوتا آخر سمعه يهذي بجوار العشة بالخارج، شبح متهدل ملبد الشعر متسخ الملابس يغطيه الطين أسماله الباليه كأنما الماء لم يقربه منذ أعوام يغني: "اعمل معروف يابو عود ملفوف ياللي خدودك بنور مشطوف"

اقترب من الشبح.. يعرفه.. هذا العملاق ليس غريبا، طالبه الشبح الأخرق بالغناء معه فقال" حبك على فين.. أراد منه أن يجاريه" على فين..هيوديني" انه هو ليس غيره..ابن العمدة. صفوت.

خرج ابراهيم وصمويل فوجداهما.. حولا المشهد إلى سيرك غنيا مع صفوت المجنون: حبك على فين على فين هيوديني..نظر علي إليهم فرددا معه" على فين...هيوديني"

*****

obeikan.com

سر الدين الفلواتي

أرسل الله الشيخ نبيل لماجدة في الوقت المناسب. هادئ مليح لا يبغي غير وجه الله. لم يتقاض أجرا ولم يلجأ لضرب، بل احتواها بحنان. قرأ عليها ما تيسر وذهب بها إلى الأطباء النفسيين. شخص الطبيب مرضها بأنه "اضطراب ثنائي القطب" بسط لهم تفاصيله كما بسطها له الطبيب، يجعل المريض "متعدد الشخصيات" يفعل كل ما لا يخطر على البال مهما كان تناقض الأفعال، ليس له علاج شامل حتى الآن للأسف، لكن بعض الأقراص لها القدرة على تهدئة المريض وتقييده بدرجة ما بالإلتزام الانفعالي. لم ينكر أسرار الروح والغيب رغم ذلك. شرح لهم خدعة الفلاش والنور المضيئ "تستطيع أن تشتريه بسهولة من أي محل كاميرات". أما الرائحة النتنة فلم تكن من موت العفريت لكنه نوع من البخور والعطارة يعرفه الدجالون.

"التفسير الحقيقي للي بيحصل لسه مش موجود. لكن أكيد الرحمة بتصلح حاجات كتير"

سأله عم عبده عن السحر فأجابه بغير تفلسف أن السحر حق ولكنه ضعيف واستشهد بآيتي "إن كيد الشيطان كان ضعيفا" "ولا يفلح الساحر حيث أتى"

لم يكن يعرف شيئا عن الشيخ الفلواتي صاحب الحارة، وقال إنه لم يسمع به أساسًا في السابقين والتابعين، ولا يعرف سوى عالم جليل معاصر اسمه المفضل

الفلواتي يعلم الناس الفقه والحديث بأرض فاس بالمغرب، من المستحيل أن يكون هو المقصود لأن الحارة أقدم بكثير.. وقبيلة شديدة العراقة والقدم في العرب اسمها فلاتة لكنها أيضا بعيدة. لكنه فسر لهم الاسم تفسيرًا لغويًّا بأنه ربما نُسب إلى الآية "ولات حين مناص" حيث لن ينجو متأخرو التوبة من العذاب يوم القيامة، ثم ابتسم نفس الابتسامة الصافية وهو يقول: وربما كان عازفا للفلوت"

لم يُسفر العلاج عن كبير نتائج غير أنها هدأت ويزداد هدوءها كلما رأته. ترددت معه إلى المساجد وأصبح يزورها بعد كل صلاة عشاء. أصبحت، وأصبح ينتظران ميعاد اللقاء. استمع لها وشعر بألمها ولمست نفسه نفسها التلقائية العذبة. راقت معه ضحكتها الناعمة وقلبها الغض البريء. أعلن في لحظة مقدسة رغبته أن يلازمها إلى الأبد. رأى فيها ما لم يره في سواها.

طلب يدها من رضوان الذي استثقل الطلب وعرضه على أبيه فغضب غضبا شديدا قلما انتابه. لو أراد مالا لأعطيناه، أيظن أنا قد عيينا بابنتنا؟ طلبنا لديه العلاج ولم نطلب أن يتقرب إلى الله بابنتنا، ليست ابنتنا في حال يسمح لها بالزواج. قل له إن ابنتنا لا تفتقد الرحمة وأن الصدقة لا تجوز على أمثالنا. رفضت هي أيضا بترفع صحبته ابتسامة.

لولا أن عم عبده وجد تقدما في حالة ابنته لاستغنى عن خدماته في اللقاء التالي. كان الشيخ نبيل عازمًا بصدق على الاقتران بها، وكان أخشى ما يخشاه أن يذهبوا إلى ذلك الظن الذي ذهبوا إليه. يعرف أنهم أولى بها، يحفظونها

كالدرة ويعرف أنهم لن يقبلوا أن يتزوجها أحد لم يعرفهم ويعرفونه غير بضعة أسابيع، أيا كان لكن للأمر وجها آخر. لماذا لم يتطرقوا إليه؟

عالج ترددهم بنفس الحكمة التي عالجها بها. كافح كي ينالها، ذهب إلى رضوان مرة أخرى في عمله بالمدرسة حيث يعمل مدرسًا للغة العربية وكلم عاطف. أقسم لهم أن ماجدة هي الفتاة التي كان يبحث عنها عمره، وأن الله قد شرح صدره منذ رآها. قال له الحج عبده في جلسة خاصة بينهما:

"اوعى يابني تفكر إن ماجده ف عيونا ناقصة حاجة. دي الجوهرة اللي ف البيت كله"

" جوهرتك في عيوني يا حج عبده"

زُفت إليه في شقته الجميلة القريبة، واحتفى بها احتفاء أمير عاشق بأميرته. لم يعد يراها أحد إلا في أسلم حالاتها. صار يحدد لهم مواعيد زيارتها فيرونها في أبهى صورة. لم تُشفَ تمامًا لكنها لم تعد تتكشف عارية أمام الناس، ولم يعد يمسسها خرطوم ولا عصا. عالجها بالقرآن حينًا وبالبهجة حينًا وبقرص يومي كتبه الطبيب وأمر أن تستمر عليه إلى الأبد. أبعدها عن كل ما يمكن أن يكدرها. ظهرت ملامحها الحقيقية، ناعمة كالصباح صافية كالأطفال مشرقة الضحكة كالوليد. إذا ضحكت اهتز جسمها كله وملأت المكان سعادة. ورأى أبوها وشقيقاها ابتسامتها التي غابت عنهم لسنوات، ثم رزقه الله منها ولدًا أسماه عبد الله.

أما عضمه فلم يدر أحد لماذا يغشى عليه كلما مر بجواره نبيل. خرج الشيخ

obeikan.com

صمويل وإبراهيم المكوجي من عند علي العراقي فقابلهما الأسطى مصطفى وهو خارج من صلاة الفجر فناداهما كالمستغيث ورجاهما أن يعالجوا ابنه عضمه.

نائم منذ سبعة أيام. يهذي بكلام غير مفهوم، يُحَدِث من لا نرى. عفَّ الطعام والشراب ونَفَرَ من كل الخلائق. نظرته غامضة ومسافرة ومرعبة، تنتابه نوبات صرع واكتئاب، ولا ينام الليل إلا لمامًا. وإذا نام يقرض أنيابه كذئب ويصرخ ويبكي ويضحك. يقوم خائفًا مما لا أدري. يصرخ أن أشياء تتحرك بداخله. مرهق طوال النهار لا يتحرك من موضعه. يخلع ملابسه كلها ويداعب عورته عاريا أمامي. أدمى صوت عم مصطفى بكاء وحزنا وهو يستنجد بهما

"ابني خلاص. بقى مجنون رسمي، ابني ضاع. ابني قطع المصحف اللي في البيت"

*****

انقطع النور في الليلة الماضية فأوقد الأسطى مصطفى شمعة ظلت مشتعلة طوال الليل ولم ينقص منها شيء ولما عاد النور وذهب الرجل لإطفائها لم يفد نفخه عشرات المرات شيئا، استعان "بعصا الغلية" المبللة ليطفئها فاشتعلت العصا وكادت النيران تصل إلى كمه وتلتهمه لولا أن عضمه فتح عينيه وسددهما نحو النار فانطفأت.

" واحنا هنعالجه ازاي يا عم مصطفى"

ارتبك إبراهيم واستدرك قائلا:

" الشيخ صمويل يقصد ان اللي عليه خطير. كلهم قالوا كده"

" يعني انتوا اللي خليتوا عفريت حوريه يرقص ويغني طول الليل ع المزيكا مش عايزين تعالجوا ابني؟ "

أصر فلم يجدا مخرجا فذهبا معه إلى البيت. تعللا بالتوقف قليلا للتبرك بضريح سر الدين الفلواتي.

همس إبراهيم في أذن صمويل " هنروح ازاي واحنا نجسين؟ "

" يا عم. كله بيعدي"

كانت الشمس على وشك الشروق، نور الغرفة مغلق والبيت في ظلام كابي. شقة ضيقة في الدور الأرضي، خانقة الحرارة داكنة، تعثرا في بعض الأخشاب الملقاة والقماش المحترق. جدرانها بلا لون، تكاد تكون خالية من الأثاث، كل النوافذ مغلقة. تعطنت الرائحة فيها كقبر لم يُفتَح منذ عام.

في أحد الأركان كان عضمه جالسا على الأرض في إعياء وقد ثني ركبتيه أمامه وتهدلت ذراعاه، مرتديا "تيشيرت" رمادي مبلل الصدر والرقبة والرأس. كان شعره الأشعث مبللا أيضا وقد نما بطريقة قذرة. من الواضح أن أباه الحج مصطفى قد حاول إفاقته عن طريق سكب الماء فوق رأسه. الزبد يسيل من جانبي فمه. تحته ارتسمت بقعة مائية عفنة الرائحة من ماء بوله. نحل جسده ووجهه تماما وبرزت وجنتاه وبدا عرقا نافرا بطول جبهته يوشك أن ينفجر

obeikan.com

وعرقان قصيران تحت عينيه، أما عيناه فكانتا غائبتين تسبحان في مائهما في جانبي المكان، يفتحهما ببطء رافعا جفنين ثقيلين كجناحين متكسرين لطائر كسيح وينظر إليهما بين حين وآخر مسددا نظرة مراوغة بلا هدف.

جلس الشيخ صمويل وإبراهيم أمامه لا يدريان كيف يبدآن. مازالا منتشيان من بهجة عفريت حورية "ودلعه". شرعا في الأغنية التي رددها مع صفوت فأغرقهما الضحك:

"اعمل معروف يابو عود ملفوف ياللي خدودك بنور مشطوف. حبك على فين..هيوديني"

لم ينظر عضمه إليهما. سدد رأسه في بطء إلى الأرض ورفع عينين كسولتين ملأتهما الشكوك والريب ممن قطعا عليه عزلته ثم ازداد زبد فمه وبدا واضحا إعياؤه ووهنه. ظهر على وجهه امتعاض أليم أخذ يزداد شيئا فشيئا ثم بدأ يزوم زوما جمَّد أعصابهما. صوتا لم يسمعاه من قبل. تشممهما بأنفه فتذكر إبراهيم نجاسته. اقترب بأنفه أكثر من الشيخ صمويل يتشممه والشيخ يباعد جسده عنه حتى كادت عيناهما أن تتلاصقا.

بدأ الشيخ صمويل في إنشاد ترانيم بلا معنى. طلب إبراهيم من عم مصطفى أن يتركهم وحدهم لئلا تتلبسه المردة الخارجة من جسم عضمه ونظر إلى صاحبه نفس النظرة التي نظرها له يوم عالج ماجدة وخرج الأسطى مصطفى يشتري لهما ما يضيفهما به وكله أمل أن يعود فيجد ولده شافيا.

جلسا صامتين أمامه وهو ملقى أمامهما ككومة من قش يابس. أشعلا سيجارتين

obeikan.com

وتبادلا نظرة هازئة فانتابتهما نوبة ضحك هستيري. تبادلا حديثا تافها في غيبة عم عبده ولم يشعرا بوجود عضمه.

قام عضمه واهنا كالموتى يتكئ على الحوائط وأخذت خطاه تقوى ويستوي عوده وهو يقارب الحمام. تبادلا النظر، كان في عينيهما أوهن من أن يعتبرا وجوده. بحث الشيخ صمويل عن عصا أو خرطوم ينهي به المهمة حتى وجد عصا صغيرة فاجتباها بجواره.

خرج من الحمام ثم دلف إلى المطبخ وعاد إليهما صامتا ولكنه جديد القوى مستقيم الجسد منتشر النشاط. ثم انتصب قائما كالحديد حين صار أمامهما تماما. قاما من جلستيهما مدهوشين. سكنا أمام سطوة عينيه. أصبح ثابتا مستقيما وحيًّا شديد الحياة، وفي لحظة خاطفة غرز سكينا في قلب الشيخ صمويل وظل ممسكا بها يدسها في قلبه دسًا إلى أن أقعده ومازالت عيناه ثابتتان على عينيه ثم توجه مسددا نظرة شلّت إبراهيم تماما ووضع السكين في قلبه وظل بها حتى سقط صريعا هو الآخر.

الصباح رباح

لم يلتفتوا لوجودها إلا حين ماتت. تعودوا غيابها، تخرج نهارا وتعود ليلا أو تغيب أشهرًا فلا يذكرها أحد ثم تعود بالمال والهدايا. لم تكن في أعينهم غير ما تجلب.

بكى الأفيونجي سوء حظه حين ماتت أكثر مما بكاها هي.

"يا قلة البخت يا أفيونجي. المزاج العالي والحشيش ومذاق أفيون الكبار".

أما حزنه عليها فقد ادخره خشية ألا تكون من صلبه فلا ينوبه غير وجع القلب.

"سوف أستوضح هذا الأمر من الله يوم القيامة ثم أنظر هل سأحزن أم أسامح"

ووقف سوكه أمام المشرحة وقد كلل السخط حياته المليئة بالاضطراب وامتهان العيون. السؤال كيف ماتت يحرجه. لذة النميمة عن فتاة رخيصة في العشرين من عمرها قتلها عاشق في بيت عشيق. الخزي والفراق لا رجحان لأحدهما على الآخر. حياتها وموتها جراح. الحياة مخزية والموت أشد خزيا ووطأة. جسدها المهترئ الممزق والوجه الذي غابت ملامحه. تماما كتلك الحياة. مسفوحة من كل جانب. قبح بلا غطاء يخفيه. عرض مشاع على الملأ. وفوق ذلك جرح الفقد. هل يمكن محو كل هذا ببداية جديدة؟ الميلاد بعد موت. النسيان في أرض جديدة.

أما هو، سلامة، فقد ارتعب من فكرة الموت وأن تلقاه بما كان بينهما. ظل صامتا عيناه لا تغمضان. تملؤه مشاعر متناقضة غريبة، يريد أن يصرخ صرخة تملأ الدنيا ويخشى أن تبين على أمواج صرخته جريمته. زجاج مدبب الحواف يمزق أحشاءه وقلبه. ارتسم على وجهه الذعر والغضب حد أن الجميع خشي أن يعزيه. هو نفسه لا يدري هل يحق له أن يحزن أم ينضم لصف قاتليها. وفوق كل هذا. لا يليق بالفراق أن يكون هكذا. بلا سماح، والذي كان مصدرا للبهجة والمرار صار أبدي العذاب.

" وازاي تموت، ومابينا لسه حاجات كتير، وكلام ميقبلش السكوت؟ "

أما الذي بكاها بحرقة فكان الصغير ذو الاثني عشر عاما "ميكا" لم يزل يذكر كلماتها الأخيرة ورائحتها الزكية وطعم الحنان الذي لم يذقه إلا منها. ظل باقي عمره ذاكرا حضنها الأخير وبكاءها وهو بين يديها ووصيتها التي لم يدرك معناها إلا بعد وفاتها بكثير.

واتبعت الأم أوامر فرج في إجراءات الغسل والدفن. لا يدري أحد أشقية هي أم لا تعي. ليس من جديد عليها إلا الصمت المطبق الذي لا يعرف أحد ما بداخله وعصبة المنديل الغريبة على جبهتها. أم أنها كعادتها، تنظر إلى كل الظروف كلها كأحوال تمر بالبشر لا حزن فيها ولا سعادة. وغالب أشرف النوبي دموعه وآماله التي ضاعت قبل أن تموت بكثير. وأشرَفَ، رغم صعوبة تنقله، على تجهيز سيارة نقل الموتى وتجهيز الخشبة.

وتحت أقدامهم كانت تحبو طفلة حافية تلطخ وجهها بالمخاط لا يدري أحد كيف ومتى أنجبتها نجيه وقد تخطت الخمسين. وجموا جميعا عند خروج الجثة محمولة في الكفن الأبيض. هذا أول خبرتهم بالموت ورعب الفراق. شعروا بحقيقة الرحيل عندما وُضعت في الصندوق وانطلقت السيارة تعدو بها إلى حضن التراب.

ظل سلامة جامدا في مكانه لم يتبعهم. كأن على رأسه الطير تأكل جسده المصلوب. وناح المغني "نجيب" خلف بكاء الناي:

" مبروك عليك التراب يا نازل التربة"

*****

تقبع شقتهم في حارة الفلواتي المسماة بذلك نسبة إلى الضريح الذي يحتوي جسد الشيخ سر الدين الفلواتي بالركن الشمالي الغربي من الحارة أمام بيت الشامي. فسر كل واحد اسم الشيخ الفلواتي تفسيرا مختلفا، بعضهم قال إنه سُمي بذلك لكثرة تنسكه وعزلته في الفلوات ومعاناة الظلام والوحدة، وقال بعضهم إنه جاء من قبيلة بعيدة عريقة في الأصل والقدم اسمها "فلاته" وفسره الخال عوف الليبي قديما بأنه الفلاتي الذي نال كل ما اشتهى وغب من كل الشهوات والعذابات حتى انتقل من حال الحال إلى المحال ووجد الحب في نهاية الطريق. ساعدته الزعيمة ساكنة الممالك وفتحت له المسالك ولكن البشر لم يفهموه فطاردوه ولم يستطع بينهم حياة.

opeikan.com

يُطلق على مسكنهم مجازا اسم شقة، يسدي الراحل عنها خدمة جليلة للماكثين، تتكون من غرفة واحدة لا تدخلها الشمس وتتناثر على أرضيتها مُزَق من سجاد. سمح سقفها العالي في تبرع إبراهيم الكاشف بسرير من دورين استأثر سلامة، بصفته الأقوى، بأعلاهما واتخذت منى، قبل موتها، الأسفل. المطبخ ليس سوى "وابور جاز" وحلتين مسودتي القعر ومجموعة متنافرة من الأطباق وطبلية "ونملية" خشبية خضراء معلقة على الحائط. وضيقا في إحدى الزوايا تحت بئر سلم انزوى "كبنيه" بلدي صغير؛ فتحة محاطة ببلاط "موزايكو" بجوارها صنبور صغير يتدلى منه خرطوم أحمر، تحته" "البستله" سطل ممتلئ دائما من الماء المنقط و"كوز" لزوم الإستحمام وفوقه خزان حديدي صدئ "سيفون". وخلف القاعد لقضاء حاجته يسري خيط هوائي ونور من شباك صغير بالخلف يطل على منور يؤدي بدوره إلى شارع المستشفى. والحوائط تملؤها الشقوق، تجوفت الحشرات في كل شقوقها وعلى إحداها استند "طشت" الغسيل وصفيحة الغليَّة.

في الجهة الأخرى للغرفة حوش بطول الغرفة يستخدمه كل أهل الحارة كمنشر للغسيل. تطل عليه الشقة من شباك صغير منخفض. ضوء الغرفة خافت كما تسمح فتحة شباك صغيرة مطلة على المطبخ ولمبة قلاووظ هزيلة كلما احترقت بقي المكان أشهرا مظلما يتقي كل فرد أن يكون الغارم ثمنها حتى تضجر منى حين تعود فتشتري واحدة وتردد نفس الكلام في كل مرة:

" هو انتوا مبتزهقوش م الضلام. لو النور ولع مش هتعرفوا شكل بعض"

يتشاحنون كثيرًا ويأتلفون قليلاً. المشاحنات حول كل شيء، وبالأخص الطعام، وأخص الطعام الفتَّة ونفحات الجيران في المواسم، ليس للواحد منهم هَمٌّ عندها إلا أن يسبق أخاه، لا يأكلون من أجل الشبع ولكن حرصا على ألا يجوعوا مرة أخرى. كان الجوع عدوا يحاربونه وساكنا مقيما في أحشائهم بشكل دائم. إذا وُجدت اللحمة فلابد أن يُدخر "المناب" للحظة الأخيرة ليبقى مذاقها هو المذاق الأخير والطُعمة الباقية. ذات مساء ضبط سلامة ميكا متلبسا بأكل ثلاث بيضات مسلوقة، يزدردها بغير خبز فركله واستنقذ منه واحدة.

أما عند المطر فيتآلفون ويألفون. يتحول البؤس هناء. حفاة عراة "وبردانين" لكنهم يضحكون ويصرخون إلى أبعد مدى، يحتضن الطين أقدامهم العارية وتسيل رءوسهم ماء. غير ذلك لا يعرف أحدهم شيئا عن الآخر. يطلع النهار فيتدرج كل منهم في الاستيقاظ ثم يخرج يعالج اليوم كيفما يشاء ثم يعود ليلا فينام حيثما اتفق. غاب سلامة ثلاثة أعوام كاملة في الإصلاحية ثم عاد ولولا تجنبهم لبطشه لما شعروا بعودته كما لم يشعروا بغيابه. الوحيدة التي كانت تجمعهم أحيانا ببعض العطايا والوجبات الشهية كانت منى. من خلالها عرف ميكا الكفتة ومذاقها ورائحتها التي ظلت تذكره بها بقية عمره. ومن خلالها عرف حمودة أنواع المزاج الراقية.

قد يأتي ضباط القسم في طلب أحدهم للاشتباه في سرقة أو تحرش أو خطف سلسلة من على صدر أنثى أو كسر زجاج سيارة وسرقة ما فيها فيذهب حيث يذهب ثم يعود حين يعود فيمارس نفس الحياة المضطربة التي صار اضطرابها

نظامًا يخضع له الجميع.

*****

غابت منى قبل أن تموت ستة أشهر كاملة ثم عادت كأنها كانت بينهم بالأمس. ليلة واحدة ثم اختفت للأبد. كانت أشد سخاء من كل مرة وصارت أكثر أناقة وأزكى رائحة. لكن عينيها حزينة شاردة. أعطتهم مالا كثيرًا وآلاما كبيرة وصدرت معظم احتقارها لأمها نجية في الصباح.

حاولت أن تتحدث إليها في آخر الليل، لكن نجية كانت تغالب النوم. لم تكن أبدا تسمع لمشكلة أحدهم. تتدخل فقط حين تحتدم الأمور في اللحظة الأخيرة.

"من أدراك أنك ستكونين بجواري في اللحظة الأخيرة؟ "

كيف تكونين هكذا سمجة ثقيلة القلب وأنا أحدثك من على حافة الضياع؟

هزت نجية رأسها بتلك الطريقة الساخرة المستفزة ثم قالت:

" نامي نامي. الصباح رباح"

عندما يطبق الليل ينهدّ الجميع. لا يُسمع في الغرفة إلا تنافس شخيرهم وضيعة أجسادهم المرهقة. ظلت مؤرقة تفكر وترجو الليل أن يطول وأن يتوه الصباح إلى أن غلبها النوم والإجهاد.

وفي الصباح انطلقت نجية نحو فرج قبل أن تصحو منى.

طائر

في يوم حلق طائر ألقاه الحظ العاثر

في حضن الريح، لكن ..

هل يأمن حضن الريح

طيرٌ مقصوص الريش جريح

حتى..والريح رخيه ١

دخل طائر صغير ملون الريش في صباح أحد أيام الربيع من الشباك الصغير الذي ينتصف الحجرة ويطل على المنشر.. يبدو أنه ضل الطريق أو ألقاه "الحظ العاثر" في هذه الشقة. .كانت الأم قد خرجت لتوها لمورد الجرائد وحموده نائم لم يفق بعد من جرعة الأمس.

ساد الشقة هرج ومرج، كل من يرى الطائر الصغير يصيح.. جرى سوكه نحو الباب يفتحه ليريه طريق الخروج لكن يبدو أن الطائر أعمى أو مذعور أو أن الباب العاجز عن إدخال بصيص من أمل لم يتبد له مخرجا، دار ودار تحت السقف العالي وبدت حيرته واضحة جدا.. تنمر له سلامة بين الحوائط ممسكا بشبشب يريد أن يترصد له بضربة لازب، فقفزت منى على يديه تمنعه.. قذفه مرة لكنه لم يصبه.. تصارعا على الشبشب ودارا حوله، رأى في عينيها نظرة استعطاف ورجاء:

obeikan.com

"لا تقتله أيضا"

أثناء تدافعهما كان ميكا متربصا بغطاء ملاءة سحبها من فوق أبيه النائم يريد أن يلقيها عليه ليصيده.. كل هذا الصخب والجري والصراخ لم يوقظ حموده، لم يتقلب حتى في فراشه على الأرض."

حاولوا جميعا، كلٌ حسب رغبته، لكنهم لم يستطيعوا حيال الطائر اليائس المناضل شيئا. لم ينقذه إلا إعياؤهم فظل ساكنا حائرا على طرف بارز بأعلى الحائط.

تأملته منى لفترة وأشفقت عليه واليأس يحيطه من كل جانب لا يجد بابا للفرار، تمنت أن يمنحها الفرصة لتحنو عليه، أن ينام على يديها ما أراد. أن يشعر باطمئنان ويدرك أنهم ليسوا جميعا ضده، أن يدرك قبل الرحيل أن أحدا في هذا العالم يحنو عليه، أن تخبره فقط أنها ليست الشيئ الذي تخافه الطيور. وبدا لسوكه كالأمل الذي لم يجد مكانا بينهم وظل سلامة طوال الوقت كامنا متحينا فرصة غفلته وغفلتهم ليصوب الشبشب في رأسه بدقة ويفكر ميكا في طريقة لصيده ليبيعه في سوق الحمام ويقدر ثمنه.. لكن الطائر الرقيق توصل أخيرا للخروج من نفس الطريق الذي سلكه في الدخول فطار وما كان له أن يفر منه إلا إذا تغافلوا عنه لدنو الشباك من الأرض.

ذهب وترك لهم إحدى الذكريات القليلة التي لم تفارقهم أبدا.

الأستاذ

أعطتها حزمة من جرائد وأرسلتها إلى الأستاذ عاكف، المحامي القاطن بجوار المقهى وأوصتها أن تكنس له شقته وتنظر ماذا يريد. تذكر أن المرة الأولى كانت بعد شهر من حبس سلامه.

استقبلها بقطعة شيكولاتة لم تذق مثلها أبدا وتركها تجول بالشقة وانصرف إلى عمله. كان الأستاذ أنيقا شامخ القامة معتدا بنفسه وملابسه وشقته، وقورا تهابه العين، تماما كما يليق برجل قانون في منتصف الثلاثينيات من عمره، كث الشارب بشكل مبالغ فيه.

شقة أنيقة واسعه يسكنها وحده. تجولت تنظفها كالمسحورة. مجموعة من الغرف والفرش النظيف، فتحت الشبابيك فأذهلها دخول نور الشمس من النوافذ. تحتوي حمامين تصميمها عجيب، زُينت حوائطها ببلاط مزخرف لا يوجد شق واحد فيه، وليس في أركانها عناكب وفي منتصف أحدهما "دش" يقف المرء تحته ساكنا فينساب الماء فوق رأسه وجسده، وصابونة زكية الرائحة ومناشف متعددة الألوان. ويخرج المرء ما في جوفه جالسا فوق مقعد مريح بارد الملمس وينظف نفسه بغير معاناة الخرطوم وإهانة "التشطيف".. يُغلق المكان بإحكام فلا خيط هواء بالخلف ولا احتمال أن يدفع حدهم الباب مخطئا. كانت في حمام العجائب.

obeikan.com

أجزل لها الأستاذ العطاء. وتركت لها نجية المال قسما كبيرا لتستمع به وأرسلتها إليه مرات ومرات. اختلف مستوى حنانه في كل مره. وبدأت أحجية الجرائد المرسلة من عند نجية في التفسير. اقترب شارب العنكبوت حد الملامسه. أبان مسرعا عن حقيقته، لماذا ينتظر وكل ما حوله آمن.

عاد الخال من قبره المطمور وما زالت تسانده نجية.

"صرح أيها الوغد بحاجتك. تعلمت في المهد الكثير، أنا في الشوارع منذ ولدت وأمي نجية، افتتح المزاد الخال ثم "زَاد" كل مراهق مسحت شقته. لم يكن قلبها قلب طفلة في الثالثة عشر.

انفرد بها عوف الليبي بعيدا عن سلامه كثيرا، زادها عن سلامه رؤيته عاريا قبيحا كالوحوش.

"لو أبلغت أو عارضت ستصيرين برصا يضربه الناس بالشباشب ولو أطعت رحمتك كهرمانه".

" لا تخبري سلامة نفسه. هذا بيني وبينك وكهرمانه".

*****

تتابعها في الطريق عيون أشرف النوبي، صبي المقهى. تبطئ خطاها لتوافق خطواته. تعشق عرجته تلك العطوفة التي تحاول دائما أن تكون بجانبها. لحظة في حياتها شعرت فيها بالإخلاص. الوحيد الذي لم يقضم قطعة من لحمها. ويعرض المساعدة بلا مقابل. لكن خطو الليالي واسع وخطوه وئيد.

يا أيها المعتوه يا غبي هل في هذه الدنيا شيء بلا مقابل؟ ألم تر الأم التي ترسل ابنتها فوق صينية من جرائد ليتجول في صفحاتها الكبار؟ ألم تر الأب الذي يأكل العار والحشيش؟

ألم تسمع أساطير الخال؟ تعال وضع يديك في ذاك المكان الدافئ وانظر إلى عينيه حين يزوم. يعرض عليها كل مرة أن يوصلها حتى البيت خوفًا عليها من ذئاب الطريق.

"انتِ كبرتِ بقى على موضوع الجرايد ومسح الشقق والسلالم ده"

نظرت إليه وعلى جانب فمها رست ابتسامة ساخرة.

"عايزني أعمل ايه يا أشرف؟ "

"هو انتي لازم تعملي حاجه. اللي زيك لسه بدري عليه. وبعدين أستاذ عاكف دا راجل مش مظبوط. مش بارتاح له. انت مش عارفه موضوع بدريه؟"

"الظاهر ان أمي بس اللي بترتاح له، لكن السؤال الأهم هو هل تعرف أنت موضوعي"

" استنيني. هانت قوي. سنتين كمان وابقى قهوجي وآجي أطلبك"

أنا الذي هنت يا عزيزي. قبل أن أعي..

"أبويا عامل ايه في القهوه؟"

"والله عم حموده مش عاجبني. نفسي يفوق لنفسه ويحس باللي حواليه.

obeikan.com

مكانه ف خطر"

نحن نشترك في أمنية واحدة إذًا. لكنه يا عزيزي يعي. ويحب أن يدعي أنه لا يعي.

همست "الخطر الوحيد هو قربك مني"

"بتقولي إيه؟"

"لا ولا حاجه. ارجع انت بقى لحسن أمي تعمل لك مشكلة"

في العامين اللذان حرص فيهما أشرف أن يصحبها في طريق الرجوع. منذ أرسلتها نجية بالجرائد أول مرة مرت أحداث وتغيرت أنفس. كان الأستاذ قد شبع تصفحا وقراءة لكل ما لدى نجية من جرائد. لم يكن الأستاذ خطرا رغم ذلك بالنسبة إلى جسدها بل بروحها. بدأت معرفة الكبار. وكان سلامه قد سُجن منذ عام، وبدأت منذ ذلك الوقت الخروج من قمقم البيت، تخطت باب المغارة السوداء إلى عالم أشد ضيقا رغم سعته وأشد سوادا في رحلة انتهت من وجه بهي، رغم أحزانه، إلى وجه بلا معالم.

obeikan.com

رفيقتان

طريقه إلى بدرية كان مختلفا وأقل وضوحا وصراحه. كانت تكبر منى بعام واحد، وسبقتها إليه بعامين. في كل خطواته كان يعتمد على سخائه واحتياج الآخرين.

لم يكن أبوها سعد الصاوي يتحصل في نهاية كل يوم من بيع الجرجير إلا على أربعة أو خمسة جنيهات فكانت تعميه العشرة جنيهات دفعة واحدة. وزوجته هنيه تدعو للأستاذ ذهابا وإيابا.

أرسلوها إليه بالجرجير في المرة الأولى فقبلها بحنان أبوي وتحسسها بمشاعر فياضة وأعطاها قطعة شيكولاته فاخرة وأرسل لأبيها الجنيهات العشرة وخصها هي بجنيه كامل.

ألفت بعد ذلك المكوث عنده قليلا لتشاهد أفلام الكارتون وعالم الحيوان العجيب في جهاز الكمبيوتر العجيب وهو يجلس بجوارها ويشرح لها التفاصيل ويحكي لها القصص تجول يداه الحانيتان على تفاصيل جسمها ويحتضنها. ثم لم يعد يحلو لها أن تشاهد الكارتون وتلعب ألعاب الكمبيوتر إلا وهي جالسة على حجره. علمها مبادئ القراءة والكتابة وكافأها ولسانها يحبو في قراءة القصص الصغيرة. وجدت عنده الحنان الذي كانت رحلتها في الحياة بحثا عنه.

كان يصل إلى نشوته الخاصة بينما كانت بدرية تستمتع بالكارتون والعصائر والأيس كريم. ثم دعاها للنوم في حضنه وقص عليها قصة الجميلة والوحش وقصص الأنبياء وأغدق عليها مالا.

obeikan.com

كثيرا ما تركها نائمة على سريره ونزل للصلاة في المسجد مارا من أمام سعد وهنية مطمئنا كلاهما على بدريه. وانتابت الغيرة نجية وألقت عليه كلمات كالسُّم في إحدى عوداته من المسجد:

" وادحرج واجري يا رمان، وتعالى على حجري يا رمان.

لو كانت النار بتشبع كان بتاع العيال يشبع "

توجه إليها واشترى كل الجرائد وأعطاها مبلغا ماليا وقال

" اللي بينا كتير. عيب"

صارت حزمة الجرجير الواحدة تكلفه عشرة جنيهات لعم على وعشرة لنجية.

عشرته بنجيه كانت قديمه. أكثر من تعرف خيبته، أوجعته بلسانها في تلك الليلة غامقة السواد.اختارها لفقرها ففتح على نفسه أبواب الشياطين وألسنة اللهب. عندما يلتهب الوابور فإن كل أعواد الكبريت لديه بطيئة الاشتعال سريعة العطب..

" بره فرشت لك وجوه فرشت لك وانت مايل ايه يعدلك،

صحيح من بره هالله هالله ومن جوه يعلم الله"

ذاب أمام خذلانه الفارق الوهمي بين فقرها وغناه ليبدو كالجبل ذلك الفارق الحقيقي بين نهمها وقحله. تحولت العلاقة بعد ذلك إلى ما يشبه تجارة الرقيق بين دولة غنية وأخرى فقيره.

xxxxx

obeikan.com

وكالنار، لم يشبع من متعة ظاهريه سكتت عنها الصبية فكشف عن وجهه الخبيث العفن. وضع في طريقها أفلاما أخرى، دسها إليها كأنها صدفة. أغلق الشاشة ونزل للصلاة ولما عاد وجدها متلبسة بالجرم. كانت بعيدة عن الجهاز لكنه، كمحام، يعرف كيف يحيط بالجناة، وكانت له براعة عنكبوتية في تمييز نظرة الدهشة عن نظرة الخجل عن نظرة الخوف والسقوط. ويعرف الوقت المناسب للهجوم وتثبيت الفرائس، أرعبها ولامها. أخبرته أنها لم تدر كيف تغلق الجهاز فأغلقت الشاشة وجرت بعيدا فطمأنها وأطعمها الأيس كريم بيديه في فمها. لم تكن تريد أن تغضبه. لم يعد نافعا أن تدعي التجاهل. أراد لها أن تفهم وتشارك. وأوصاها بالتكتم.

لم يخف على "هنيه" ما صارت ابنتها تلاقي من كوابيس وخوف وعزلة ثم التردد ورفض الذهاب إلى الأستاذ وتبرزها على سريرها ليلا وما تجد في سراويلها من ألغاز.

سألتها وضيقت عليها فأخبرتها. ذهبت إلى نجية تستغيث بها فطلبت نجية أن تترك لها الأمر.

اتبعت نجية والأستاذ عاكف خطتان، واحدة للترهيب وأخرى تكذيب.

سُرق من شقة الأستاذ في هذه الليلة مبلغا ماليا ضخما وساعة يد فبات عم سعد ليلته في القسم فداء لابنته التي سرقت شقة الأستاذ عاكف. ومن خلال معارفه قضى سعد الصاوي ليلة عذاب لم يكن يظن أن مثلها موجود في الحياة. وذهبت

نجية تكذب كل ما ادعت هنيه وابنتها وتسألها أن تبحث عن الجاني الحقيقي بدلا من اتهام الناس الأكابر.

" دا راجل محترم وواصل وعنده عربيه. هيبص لعيله؟ تلاقيه الواد أشرف الأعرج"

واتُّهِمَ أشرف أيضا في اليوم الثاني بسرقة ذات الشقة وأصبحت الجريمة حائرة بين المتهمين سعد الصاوي وأشرف النوبي. عُذب كلاهما لكشف مرتكب الجريمه؛ جريمة السرقة التي قلت أمام هولها اتهامات هنية.

وأخيرا، قرر الصاوي وهنية الرضوخ والصمت تجنبا للحبس والفضيحه. ونظرا لرحمة الأستاذ وبره بأهل المنطقة وسعيه الدائم لنيل ثقتهم ونظرا لتوسط نجية وشهادة حموده الأفيونجي بنزاهة الرجل رضي الأستاذ عاكف أن يتنازل عن القضية رأفة بالرجل الكبير سعد الصاوي. وضُربت بدرية ضربا شديدا وصارت المتهمة الوحيدة غير المبرأة إلى الأبد.

*****

توقف الأستاذ عن عطاياه الجرجيريه وعطاياه الشهريه. ثم طلب حزمة بعد ثلاثة أشهر.

أرسلوها مع بدريه. وسألوها حين عادت سؤالا هاما جدا.

كم أعطاك؟

*****

obeikan.com

بيت واحد في هذا العالم كانت تشعر فيه بالحنان. بيت الحاج حامد وزوجته العطوف رُقيه. كل من يدخله يأكل ويشرب كوب شاي بالحليب ويجد صدرا حانيا ثم يمضي. هادئين كواحة خضراء بين أمواج متلاطمه ويمنحان بلا مقابل. مات ابناهما في مأساتين عجيبتين. كلما بلغ الواحد منهما سن العشرين مات. ينام فلا يستيقظ. احتوى صدراهما حزنا بالغ القسوة ثم ذاب وتحول إلى رضا بقضاء الله وصار كل أبناء الحارة أبناءهم. علمها الحاج حامد مبادئ القراءة والكتابة وأرادت الست رقيه أن تعلمها الخياطه لكن بيع الجرجير ومسح السلالم كان في عيني أبويها أولى.

" سيبك م اللي مبيجبش فلوس. دي عالم فاضيه".

*****

في طريقهما التقيا برشا مرجان. كانت تكبرهما بقليل. قابلاها حين كانت في السابعة عشر. نسيت ملامح أبويها، تميزت دونهما بالجسارة في ملابسها وطريقة كلامها ولون شعرها الأحمر العجيب وقلائدها وأساورها الكبيرة. كانت عالما كبيرا مختلفا، أشبه بالخروج من ترعة صغيرة إلى محيط واسع. تعشق المغامرات والسهر. ليست مثلهما يحركها الجوع بل لعله الشبع. علمتهما الخوض في عالم الكبار وأخذ الحق من عين " التخين". كان مبدؤها دائما:

" لكل شيئ ثمن. نحن أول ما ينكرونه، لا بدَّ أن تأخذي حقك. لا تتنازلي ابدا فسوف يتنازل الجميع عنك في أقرب فرصه"

كانت في السابعة من عمرها حين انفصل أبواها بعد قصة حب وزواج كبيرة قتلها العند، تحول العشق الكبير بينهما إلى صراع يومي مبتذل ومهين وصار الخلاف على أتفه الأسباب يثير أعظم الزوابع فاستحالت العشرة بينهما وأراد كل واحد منهما أن يبدأ من جديد.

تزوجت الأم فور انتهاء عدتها، وكانت أشد انصياعا وتحملا وولاء للزوج الجديد رغم قلة الحب وتزوج أبوها وكان أشد احتراما وتحملا لزوجته الجديده وصارت رشا هي العبء الذي ينوء بحمله الطرفان. تركاها لدى خالتها، الصديق المشترك. وسافر الأب إلى الكويت وهاجرت الأم مع زوجها إلى أميركا. وكلاهما يعوض غيابه بإرسال مبلغ تنافسي بالدينار والدولار للخالة كل شهر..

تركت لها الخالة الحرية المطلقة. لم تقابلها يوما بلوم أو عتاب أو وجه صارم. بل متعة مطلقة، المهم أن تخبر أبويها باستمرار أنها سعيده في كنفها فيزداد الدخل. والداخلون.

كانت فوق جرأتها أشدهم رفضا للظلم وتعشق الإنتقام وتحتفظ بجراحها "green" " كما تقول لهم، وتجيد أخذ الحق باليد واللسان وأكثر ما تؤمن به هو ذلك المثل الإنجليزي الذي علمها إياه الأستاذ " أن الإنتقام طبق يفضل طهيه وتقديمه باردا. وبهدوء". كانوا يعشقون لكنتها حين ترطنه؛

.REVENGE IS A DISH. BEST SERVED COLD

اختارها المدرس " صاحب خالتو" الذي درس لها اللغة الإنجليزية وهي بالصف

السادس الإبتدائي لتكون ذريعته في الدخول والخروج. كرهت استهتارهما ومروقهما عبرها فكمنت لهما بهدوء.. وبهدوء، بعد المراجعة النهائية قبل الامتحان النهائي، فتحت باب الشقة وخطت في المقدمة، خلفها تخطو زوجة متشحة بالتربص والدهشة ثم فتحت بابا آخر لتدخل الزوجة إلى غرفة نوم ملتهبة بالشوق فتضبط زوجها المدرس في أحضان الخاله.

*****

ثلاثتهن أيضا يعشقن المطر ويعشقن تلك العادة القديمة التي لم يتوقفن عنها أبدا. الجري والدوران في الليالي المطيرة. حتى بعد أن ماتت منى وفرقت بينهن السبل ظل ماء المطر، سر السماء، رسالة تذكير دائمة تجمعهن على البعد.

سوكه

في الثانية من ظهر كل يوم يخرج الطفل الصغير من الحارة ويجلس على الرصيف ينتظر موعد خروج المدارس. يرقب السيارات ويردد بصوت عال مشيرا بيديه كلما مرت سيارة أعجبته. هذه لي وهذه ما سأمتلك. يتسلى بمشاهدة السيارات حتى يخرجوا. مبهجين في ملابسهم الموحده وشنطهم المدرسية المختلفة. يسمحون له أحيانا بمشاركتهم لعب الكره لكن معظمهم ينبذونه لأنه دونهم..

" مش متعلم"

يذهبون إلى منازلهم متعللين بعمل الواجب. لو أعطاه أستاذ واجبا يكتبه لأفنى نفسه فيه عشقا.

يظل بالشارع حتى يكاد ضوء النهار أن يذهب وتعود أسراب الحمام إلى غيات أصحابها فوق الأسطح. تدور وتدور وتختلف أشكال دوائرها لكنه لا يخطئ أبدا عد أفراد أسرابها. متعته القصوى؟ يستطيع متابعة الحمامة التي تغير مسارها عند الدوران فلا يعدها مرة ثانية. يضاحكها على البعد أنها لن تخدعه. يحسد الحمام أن سينام في صحبة مؤتلفه ويكره أن يظله الليل في وكر يكره الحياة فيه منذ عاد الخال عوف الليبي.

أما المطر، فكان العشق بلا حدود.كيف اختزن السحاب كل هذا الماء ومن يأذن له بالهطول. وتمد الأرض ذراعيها تحتويه في شوق. لا بدَّ أن الله موجود وأنه عظيم. أعجب بصوت صديقه الشيخ الصغير إيهاب في المقرأة وهو يقرأ من

آي القران عن المطر؛

" وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج"

*****

تلخصت حياته في البحث عن لحظة صفاء حتى إذا وجدها ومد إليها يدا تعذر عليه أن يستمتع بها. لحظة كانت أقسى ما مر به وأجمل ما مر به أنه رآها رأي العين.

طبيعته مختلفة عنهم منذ وعى، يميل طبعه إلى الهدوء. ينكر تصرفاتهم لكنه لا يستطيع حيالها شيئا. متزن رضي النفس، لا تبلغ أقصى درجات عصبيته أن يتخطى صوته حدود سامعه. كلما ازداد غضبا ازداد هدوءا وسكونا إلى نفسه. حريص على ترضية البشر وبقلبه حنان يسع العالم كله.

ربما كانت الحياة أكثر قدرة على الإحتمال حتى ظهر هذا الخال العائد من الغربة مسكونا بالغدر والجنيه والسلوك المضطرب. سافر قبل أن يولد وعاد وهو في الثامنة من عمره. نشأ بينه وبينه جدار من الكراهية وعدم القبول وادعت جنيته أنه ابنٌ "براوي" مشئوم أما أخته التي تصغره بعامين وأخوه الذي يصغره بثلاثة أعوام فهما في عين الخال ابنا الحنان وحسن الطالع.

سرت نبوءته بينهم كقانون سماوي مُنَزَل واجتنبه الجميع فازداد هدوءا وانفصالا. كانت نبوءة الخال جدارا فاصلا عزله عن الجميع. حتى أبيه نبذه.

كان هذا الأب يتحين أي فرصة لنزع الأواصر والنجاة من أي مسئوليه. لعله كافأ عوف الليبي على نبوءته تلك.

*****

عمل سروجيا مع صديقه جمال الذي اشتهر بين الناس باسم عضمة لشدة نحوله وبروز عظامه. نحوله هذا هو الذي جعله سباحا ماهرا يسبقه دائما كلما عاما في ترعة المريوطيه، وكذلك كان لاعب كرة ماهر لكن سوكه فاقه كثيرا في تعلم الصنعه. لم يكن يجد هذا الصفاء الذي كان يبحث عنه إلا معه. يميل مثله إلى الهدوء والعزله. ربما يجلسان معا صامتين لساعات لكنهما معا. وكان الحج مصطفى صاحب الورشه يعامله كما يعامل ابنه تماما. حتى بدأت أحوال جمال تسوء.

أصبح مرهقا دائما رغم صبوة شبابه ثم أصابته أعراض غريبة تغير على إثرها كل شيئ.

بدأ بالحمى والهذيان ووجع البطن. ازداد نحولا فوق نحوله واسود ما تحت عينيه وجحظت عيناه وشرد واعتزل الناس وأدمن الوحدة والنظر إلى سقف الحجرة ثم أصبح يرى نفسه يلامس السحاب ويستظل به دون الناس وتجالسه الملائكة. ادعي أنه يرى مالا يراه الناس. وتحيطه بالحجرة مخلوقات تعد بالآلاف كلهم على شاكلته وملامحه لكنهم يختلفون في حجم الرؤوس فبعضهم كبير الرأس ورأس بعضهم كرأس الدبوس ومستطيل الرأس ومنحوتها ورفيعها وسميكها

لكنهم جميعا نفس الشخص، هو. طاف به أبوه الحاج مصطفى على "الأطبة" والمشايخ والكنائس حتى أعيته الحيل واضطر لبيع كل ما يملك لتنفيذ طلبات المشايخ والأسياد ثم باع الورشة ثم أعياه هو نفسه المرض والحزن على ابنه الوحيد.

ذهب سوكه للعمل لدى إبراهيم المكوجي لكنه توقف بعد أسبوع واحد لأن كل الأطفال أصبحوا لا ينادونه باسمه الحقيقي أحمد ولا اسمه الدارج " سوكه" بل أصبحوا جميعا يطلقون عليه اسما واحدا يغيظه جدا " مكواه". ولأنه اكتشف أن مهمته الأساسيه لم تكن أن يتعلم كي الملابس وإنما كانت أن يحرس المحل حتى يعود الأسطى إبراهيم من بيت على العراقي حيث يعالج زوجته حوريه التي تنزلت عليها الشياطين.

*****

تألم كثيرا لحبس أخيه سلامة الذي يصغره بثلاثة أعوام. حاول أن يجد طريقة للمساعدة لكنه كلما التحق بعمل كانت نجية الأسبق بالاتفاق مع صاحب العمل بأن تقبض هي " الأجرة الأسبوعيه" متعللة لصاحب العمل بالجري على العيال والإنفاق على سجين الإصلاحيه. دائما تستأثر بالأجر من مصدره. حولتهم جميعا إلى منتجي فلوس واستأثرت وحدها بمنى تقضي معها اليوم كله، كانت أكثر من افتقده من إخوته. باعتهم بالتجزئة وباعت مُنى جملة، لم تمهله أن يصحبها فترة أطول. ولما خرجت من حجرها تاهت في زحمة الحياة. العصفور الذي لم نستطع أن نحتويه. لم يكن يعني الأم والأب حينها إلا أنها تعود محملة

بأي شيئ دون السؤال عن ثمن. حتى الصغير ميكا، باركا عمله مع أخطر الناس في الشارع. تاجر الحشيش المعلم أبو سالم.

تمرس على مهنة القهوجي في مقاه شتى وتدرج فيها من صبي كل دوره الكنس والتنظيف ولم العِدَه "جرار" إلى مساعد أرضيه يساهم في توصيل المشاريب ورص الشيش تساعده خبرة قديمة اكتسبها من خدمة الحشاشين في شقتهم الخانقة في الزمن الغابر ثم وقف على النصبة. أخبره أشرف بصعوبة أن يحتفظ أبوه بمكانه في المقهى بعد أن أصبحت تختلف عليه المشاريب والزبائن وعن "توهانه" الدائم وافتضاح أمر المكيفات واستهزاء الزبائن وعن نفاد صبر المعلم إبراهيم الكاشف فاستنفره ذلك كله وقرر أن يطلب من المعلم أن يعمل في المقهى مساعدا لأبيه بغير أن يكلف ذلك المعلم الكاشف جنيها واحدا فوق أجرة أبيه.

حاول كثيرا أن يجعل أباه يدرك أنه لم يأت ليأخذ مكانه لكنه، كعادته في كل شيئ، كان قد حبس نفسه داخل فكرة ولم يرد أن يخرج منها.

أما المعلم الكاشف فقد سُرَ به وشجعه وجعل له يومية مستقلة وأبقى على أبيه إكراما له. الشيئ الوحيد الذي كان يغضبه منه هو وقفته تلك ناظرا إلى السماء حين يخبو ضوء النهار ليعد أفراد أسراب الحمام، فيصيح مازحا

" أنا قلت كتير، عمر الهبله ما تجيب دكتور. دي عيله كلها مخابيل"

سلامة

نشأ شديد الإنطواء لا تفارق عيناه الأرض. مضطربا منذ نشأته الأولى ثم أكلت جدران السجن بقايا آدميته كتوما بعيدا تصعب معرفته، ظنينا لا يطمئن لأحد، يشعر دائما أنه محط أنظار الناس يريدون أن يكشفوا سره. يقرض أظافره بنهم، يرعبه البراح ويعشق الضريح. كل من رآه لاحظ أن جسمه الفتي يفوق عمره ورغم أنه يكره تماما تشبيهه بالخال إلا أن كل من عاصر عوف الليبي من أهل الحارة قال إنه قوي مثله. وفسر هو كراهيته لهذا التشبيه أنه لا يريد أن يموت عاريا. أما كراهيته لأبيه فلا يحتاج أحد للبحث في أسبابها.

منذ كان في الثامنة كان كل من في الحارة يتضجرون منه، إما لضرب طفل أو تبجح في وجه كبير أو لضياع شيئ كان هو آخر من رآه. لم تكن مشاكله تقف عند حد.أي شيئ مهما كان تافها يدعوه إلى الشجار والصياح. لا يسمح للغضب أبدا أن يتراكم داخل نفسه والويل لمن يحول بينه وبين خصمه. أضجرت الشكاوي أباه وفكر في كيفية الخلاص من المسئولية فاعتمد منهج الضرب والطرد من البيت فصاحب الليل ورفاق الظلام منذ هذا العمر وتعلم كيف يواجه الرعب ثم يذهب للمبيت في ضريح الفلواتي تحاشيا للقاء أبيه، لم يكن يؤاتيه النوم الخالص إلا بالضريح. سرٌ خفيٌ كان يعزله هناك عن العالم ويشمل نفسه بالطمأنينه، يتأمل كثيرا مقامه المتواضع باحثا عن سر القدسية وتلك الشموع التي تشعلها العاقرات والعوانس حول الضريح فلم يمنحه الصمت أي إجابة.

كثيرا ما نام منتظرا هدايا المقدس لكنه لم يكن يُمنح غير نوم مطمئن لا يقلقه سوى آذان الديكة من عشة النجار.

احتدم صراع بينها ذات ليلة فانهال الأفيونجي عليه بالخرطوم حتى أُنهكت قواه. لم يتحرك هو أو يدافع عن نفسه، لم يهرب، لم يبك ولم ترمش عيناه. يومها شعر حموده الأفيونجي أن الزمام قد فلت من يديه إلى الأبد.ملأه الرعب، نظرة عينيه أخافته، وقف ساكنا أمامه لبرهة، تلاقت عيناهما، صرخ مستنجدا بأهل الحي أن ينجدوه من سلامه..زعم لهم أن ابنه سلامه يريد أن يقتله فاقتادوه جميعا إلى قسم الشرطة. كانت حميتهم مدهشة وحماسهم متأجج..لم يدافع عنه منهم سوى عم جرجس لكنه كان دائما خارج إبداء الرأي.

ادعى حموده أنه يؤدبه وأنه لم يكن يقصد إلا أن يرهبه بسلطان لا يستطيع رده. لكنه أتقن التمثيل في ذلك اليوم جدا لدرجة أن عيني الضابط كادتا أن تدمعا من هذا الصبي المارق الذي يرهق أباه فحبسه وأوصي المساجين أن يُرهبوه فضاع في غياهب السجن ثلاث سنوات. نسوه خلالها ونسيهم. كانت وشيجة القربى أوهن من أن تحتمل ثلاث سنوات من الفراق...

لم يكن في السجن مختلفا عنه خارجه. منطو وساكن لكن إذا مسه القلق تحول إلى كائن قاس الإنتقام متحجر القلب لا يردعه شيئ. كثيرا ما شعر أن بداخله كهرمان لكنه لا يفصح عن نفسه إلا ساعة الغضب. كل مجالس التأديب وكل أنواع العقاب كانت تزيده سوادا وحقدا. سلب منه كهرمان الإحساس بالألم وكل أنواع المشاعر الإنسانية ولم يُبق إلا البغض. لكن ما يدهشه في نفسه إلى حد

العجب أنه إذا أضواه الليل يبكي كالأطفال نادما على كل ما فعل.

خرج وبداخله مرار يحتوي العالم كله. لم ينج من بطشه كبير أو صغير حتى صار أشد من في الحارة رهبا واجتنابا. تستفزه أهون الأشياء وتستثيره التفاهات فيثور ويضرب بكل قسوة ثم يعود مطويا على نفسه يلومها بكل قسوة. وكلما تمر الأيام وكلما كبر قل اختلاطه وزادت مساحة البعد بينه وبين الحياة خارج نفسه.

خرج فوجدها أمامه، تكبره بعام. الحياة التي لطخته بالوحدة لطختها في الزحام وامتلأت بعشرات التجارب. بينها وبينه سقف سرير والليل يأكله ولذة الخدر من لمس الأيادي مازالت مشتعلة لم تخبُ بعد، رغم موت الليبي ومرور الأعوام. شوق فطري تطور عمدا بين سجين هارب وهاربة سجينه. كل ما مرا به في الحياة كان المقدس فيه هزيلا ورادع الأب والأم متهتك منذ وعيا.. فسقطا. روعه يوما أن آذاها ابن العمده، تمنى أن يقاتله حتى ينتهي كلاهما لعلهما يسقطان معا من فوق السطوح.

كلما أراد أن يتوقف عنها راودته نفسه إليها فأطاع. لم يفلح اعتياده السري كل ليلة في ريه. كل ما عداها فراغ. لم يكن يُطفئ ناره التي تريد أن تحرق العالم حقدا وغضبا سواها. كانت كهرمانته.. لذته وعذابه وخطيئته القديمة التي لا تموت.. وحين يقتله الإثم ويستوحش نظرة عينيها يعدو بالذنب والظلام إلى مقام الفلواتي فلا يجد سوى الصمت والفراغ وشموع العواقر.

*****

انفرد عوده واتسع مابين كتفيه. وزادته التيشيرتات الضيقة وارد العراق التي أعطته إياها حوريه الشامي جمالا وألقا. شعره الأسود الفاحم وعيناه الواسعتان السوداوان وأهدابه الفاحمة المسدلة أضفت عليه مع خجله ونظرته الدائمة إلى الأرض غموضا وسحرا. راقها أن تتحسس صدره وظهره وذراعيه المفتولين حينما كانت تهندم عليه التيشيرتات وعلى عينيه لمعت بهجة اللبس الجديد.قلما ارتدى شيئا وكان أول من ارتداه. لم يحز أبدًا إلا ما يضيق على أبناء الجيران أو ما يتصدق به السأمان من ملابسه.

لمحته يتلصص عليها في عصر اليوم التالي من شق صغير وهي تلم الغسيل في حوش منزلهم

"هل كبرت إلى هذا الحد أيها الصبي الذي كنت أحممه منذ سنوات؟ "

تفننت، لما رأته في التلوي بين أحبال الغسيل. اشتد حبل المنشر وكانت قِطع الغسيل رخيه نديه كلما التقطت قطعة استغرقت وقتا في دسها في طبق الغسيل الواسع فيتدلى نهداها كالضرع الظمآن. رفعت عيناها نحوه وثبتتها للحظه. وجم ساكنا يخاف أن يتحرك، لا شك أنها تراه. اتجهت نحوالشقة وعلى وجهها نظرة جامده. دقت على الباب فارتعب.

" تعا يا واد يا سلامه شيل طبق الغسيل عشان ضهري بيوجعني"

دخل خلفها متأججا مستعرا. كانت جادة تدعي الغفلة. تسكن في أخر شقة بالحاره. شقة مليئة بالغرف، مرصوصة كقوالب الدومينو. على الحائط صورة

pelikan.com

قديمة لأبيها عم حسن الشامي مرتديا ملابس الإحرام وخلفه صورة الكعبة. صورة مأخوذة في محل مصور فقير الحيلة. بدا واضحا تماما أنها مركبه. هل يقبل الله صور الحج المركبة في محلات التصوير؟. المتبركون بالمقام يتبادلون العري والقبل. لقد ألقاهم ربهم في الحياة ثم لم يعبأ بغير ذهابهم إلى المساجد.

في أي غرفة من هذه الغرف استهل على النجار فتوحاته الأولى؟ في أي مكان يشعل إبراهيم مكوته. أين يلقي الشيخ صمويل تعاويذه؟ هل يشفيانك معا أم واحدا تلو الآخر؟

شملته رغبة فاحشة أن يلمسها، وضع الغسيل الندي على منضدة بجوار الباب، احتضنها من الخلف باندفاع غشيم. ضم عجيزتها الضخمة إلى قُبله وأنشب ذراعيه في وسطها، استشعر طراوتها واستشعرت صلابته فاستدارت ولطمته. توقفا لبرهه..سكن كل شيئ حولهما، ركلها برجله في بطنها بلا رحمة فسقطت بعيدا. لمعت في عينيها نظرة ذليلة. جذبها من شعرها بيد واحدة صلبه، ادعت المقاومة. جرها كالذبيحة نحو غرفة مغلقة وهي متعلقة بيده تئن باقتدار، مر بحذائه ثم بجسدها، الذي خفف حمله تعلقها بيده، فوق قطع الغسيل

و سمحت للشبشب الوردي أن ينخلع من قدميها.

*****

اتخذه أصحابه عونا لهم في المعارك. ويلومه أصحاب آخرون فيرد بقوله

" أنا ف صف اللي يدفع أكتر"

" طب وحق ربنا؟ "

" روح اسأل عليه ربنا"

استقطبه الأستاذ عاكف عبيد بعين خبيرة واستخلصه لنفسه واستطاع إدارته بذكاء. صار محاميا لكبراء الناس، توسعت أعماله ويحتاج مثل سلامه، يجتذبه دائما بالعطايا ويستعمله في مهام خاصة لا يعرف لكنه يحافظ دائما على المسافة التي تجعله لا يتخطى حدود الخادم. قد يستعمله في أرقى المهام وأخصها ويرسله إلى أهم العملاء وقد يرسله لجلب الخمر أو الحشيش وتسليك الشيشه واعدادها ورص النار والمعسل لكنه لا يشاركه التدخين أبدا. وكما استخدم أباه حموده الأفيونجي وعلمه سيجد لسلامه المهنة التي سيجيدها بقية عمره والتي أسسته الحياة لها منذ البداية.

أول مؤهلات مهنته الجديدة أن يكون بلا قلب وثانيهما أن يكون طيعا كالكلب. ليس من السهل ترويض ذلك الكلب البري لكن من السهل إشباعه وشكم شراسته بل واستخدامها للنبح والصيد حيث نريد والرضا بما يلقى. جعله ما أراد به الشاعر

" ككلب الصيد يمسك وهو طاو. فريسته ليأكلها سواه "

والشرط الثالث والأهم أن يوافق على الإمضاء على " ورق الضد " وكما برع حموده الأفيونجي كشاهد زور لأنه بلا ضمير برع سلامه تماما في مهنة "

obeikan.com

الكحول" لأنه فقد ما هو أكثر من القلب في رحلة الحياة.

*****

سارت به الحياة وسار فيها بغير رغبة لكنه كان ينجح في كل المهام. يتحمس قليلا في البدايات

ثم سرعان ما يدركه السقم. لولا لين المظلومين بعد الضربة الأولى لوقع تحت أقدامهم طالبا نحره. عجب هو نفسه من يسر مسالكه وكثرة مشارب رزقه رغم كل ما بدر منه ويعجب من صحته وبطشه. لم يتوقف يوما واحدا عن تمني الموت في أي معركه. لم يوسع على نفسه إلا في طعامه. أما السكنى والمبيت فلم يكن يظن أنه قادر على ترك تلك الشقة وذاك الضريح.

يناسب سواد سقفها قلبه ويشعر بالدفء بين حوائطها الكابيه وتتفق قذارتها تماما مع ماضيه وحاضره. يدمن رائحتها العفنه، يربطه بها الذنب والخطيئة، ضيقها يناسبه، يكره اتساع الدنيا بالخارج ويشعر بشيء ما يربطه برباط خفي بالضريح. فليبق هنا ما حيا، بجوار كهرمانة وكهرمان والفلواتي، صاحب الصمت والغرابة الذي يمنحه النوم العميق، أما السر الذي يتحرج أن يعرفه إنسان فهو أنه لا يستطيع أن يقضي حاجته إلا في هذا "الكبنيه" على هذه "القاعده البلدي " مع صوت انسياب الماء من هذا الخرطوم وبيده السيجاره وخلفه صاروخ هوائي لا يني عن ترطيبه من ثقب شباك المنور.

ميكا

" وتينة غضة الأفنان باسقة قالت لأترابها والصيف يحتضر

لأحبسن على نفسي عوارفها فلا يبين لها في غيرها أثر

إني مفصلة ظلي على جسدي فلا يكون به طول ولا قصر

ولست مثمرة إلا على ثقة أن ليس يطرقني طير ولا بشر "[١]

عندما يفقس بيض التماسيح يبحث الوليد الصغير عن صيد منذ اللحظة الأولى إن لم يقتنصه هو نفسه قانص. يزحف نحو الماء بالفطرة والضروره ويشمله النهر الكبير بالحياة والرزق. قد تحمل الأم أبناءها في فمها الواسع حتى البحر..أما هذا فقد تركته نجية منذ اللحظة الأولى لتصاريف الحياة.

كزرعة نشأت بلا ري منتظم ونبتة اختلست قليلا من ضوء الشمس لتعيش، نشأ مايكل. منذ وُلد والجوع معركة نضاله. لعل هذا هو التفسير الأنسب أن جعل الطعام والثراء هدفا حياته. أرضعته نجيه قليلا ثم تركته للطريق والحياه. يأكل ما اتفق، ويشرب ما اتفق ويلبس ما اتفق أو يسير عاريا. كانت أكيدة من رعاية كهرمانه لنبوءة الغالي وكانت تؤمن دائما أن الله الذي خلق الأطفال كتب لهم رزقهم وحياتهم وموتهم حين أتموا اليوم الأربعين في بطون أمهاتهم. هذا ما أخبرها به فرج بناء على فتوى الشيخ الذي كان يخرج من صلاة الفجر فيأكل " سندوتشين" الفول وفحل البصل ويأبى فرج أخذ الحساب منه تبركا فأصبح

obeikan.com

يأكل أربعة ويعلمه شيئا من الدين. هذا ما فعلته مع سوكه وسلامه ومنى والذي خلق الأسنان خلق ما تمضغه. هذا أيضا ما علمها المرحوم حسن الشامي مؤذن المسجد حين راحت تشكو إليه من ضيق الرزق وكثرة العيال ففتح فمه فجأة ومد فكه الأسفل للأمام فأدهشها تصرفه وأشار إلى ضروسه الكاملة رغم تخطيه الستين حينها وقال " اللي خلق دول يا بت، خلق اللي هيمضغوه" .

من قصيدة " التينة الحمقاء" للشاعر إيليا أبو ماضي

وأكثر ما يبعث على الاطمئنان أن في نهاية الحارة على طرفها الأيمن دكان عم عبده وعلى بابه يجلس دائما. يرد أي طفل أوشك أن يخرج إلى التيه والبراح. وفي قلب الحارة قلبان نابضان لا يسمحان لطفل أن يجوع أو يفوته طعم الشاي بالحليب، حامد ورقيه. ثم إن اخته منى قد أتمت الثامنه. يمكنها الآن أن تفتح بيتا ثم تكون أمًا بعد عام أو عامين. الكل لا بدَّ أن يكون منتجا والصغار مشاريع كبيره، والله حفيظ.

عندما استطاع السير على قدميه كان حموده الأفيونجي يصحبه معه إلى المقهى ليبهر الناس بسفالته الشديده. مقابل شلن يشتم أي شخص مهما كان مركزه وحمودة يضحك ويباهي فإن أعطاه المشتوم شلنا آخر يشتم الأول. أما البريزه فبها يشتم ويبصق وربما أخرج لهم " البُلبُله"

توجه إليه إبراهيم الكاشف حازما وسحبه من يديه بعنف فقال حموده مازحا

"ها عايز شتيمه ولا بلبله؟

" كده عيب يا حبيبي.. عيب. فاهم؟ اوعى تعمل كده تاني "

كانت عيناه مرعبتين. ظلت نظرته في خياله إلى الأبد.

*****

نما والقرش والشلن والبرايز هدفه الأول وخانة الجوع هي الفراغ الذي كرس حياته كلها لملئه.

استقطبه الملعم أبو سالم، تاجر الحشيش وفطحل تجارة الحشيش لخدمته حين بلغ العاشره. يفعل أي شيئ من أجل المال. لا رقيب فوقه يخشاه وثمنه إذا ضاع حفنة من الجنيهات يتهلل لها الأب والأم. أبعد الناس عن شك المباحث. وكلما زاد الخطر يزيد السعر فيزيد احتماله واقدامه.

شديد الحرص والبخل لا يعرف أحد أن تذهب كل هذه الفتافيت ثم الألوف التي يجمعها. كثير الجمع قليل الصرف. كل الناس مصادر دخل والحياة لا تعبأ بغير الأغنياء. أما المعدم الفقير فيسلي أبوه به الناس كالقرد المسلسل.

لم يخف على نجية سر امتلاء جيبه وصحبة المعلم له، قلما غفلت عما يحدث حولها لكنها تعشق التغافل وتعرف متى يكون التدخل وكيف يكون، لكنها تضجر من قليل منحه لها وقلة عطاياه. تعلم أنه يكرهها، دائما يذكرها بإهماله وتركه. فعلت معه ما فعلته معهم جميعا لكنه الوحيد الذي أوكلت حمايته لنبوءة كهرمانه.

تخاف أن تقربه لكنها تستطيع أن تقرب المعلم أبو سالم. مر من أمامها فقالت بعهر

obeikan.com

" معرفش أدق التوم إلا بقميص النوم. العين الفارغه ميملهاش غير التراب "

يقبل نحوها المعلم كالأسد.. أرهبها قربه فصمتت، كان لقاؤهما القديم أشبه بجبلين يصطدمان..

" جرى إيه يا مره يا عايبه؟ اوعي تنسي نفسك."

*****

ليس للحنان في حياة ميكا سوى مصدر واحد لكنه قليل الظهور شديد العناء، منى. تظهر مرة أو مرتين في كل شهر محملة بأطعمة وحضن دافئ. ليته يفهم ما يبكيها أو يستطيع لها علاجا. في الليلة الأخيرة بقيت طوال الليل مسهدة وهو مكوم في حضنها كالقط. مسحت دمعها وأرسلته من حضنها فجأة ثم قالت

"ميكا. أنا عايزاك تتعلم حاجه واحده في الدنيا. انك تعرف تقول لأ. عايزاك تكبر وتتجوز ويبقى عندك عيله وعيال تفديهم بروحك، الخال والد يا ميكا. أحلى شقا هو الشقا ع العيال يا ميكا. "

أما حموده فما زال يطير فرحا به إلى السماء. فجيبه الآخر لا يخلو أبدا من بعض بقايا أصابع يختلسها أو يرسلها له المعلم أبو سالم. كلما زاد دوره زادت قطع الحشيش حتى وصلت إلى "صباع" كامل. فقط لو يخبرني أين تذهب أمواله أو أين يخبئها ولماذا هو غامض وبعيد ولماذا لا يصحب أباه أيضا إلى محمود الكبابجي؟

توسع نشاط ميكا واستقل عن المعلم. عرف السكك المؤدية إلى النجاح. الوقت

قليل في هذا العالم لا مجال فيه للخطو بل للوثب. احتاجت الأموال التي تزيد بلا حدود إلى نشاط يخفيها فعمل بالتجارة. أي تجارة. الملابس وكماليات السيارات وقطع غيار السيارات والسيارات والكمبيوتر. كلما نضج وكثر ماله نضجت تجارته . عوض جهله بماله وبالإستعانة بالصبيان "المتنوره " أو كما كان يسميهم دائما

" العيال اللي أهلهم صرفوا عليهم. مش تربية الشوارع "

يفكر كثيرا أن يوكل لأحدهم مهمة تعليم أمل. يريد أن يراها بهذا الشكل وأن تتكلم بتلك الطريقة وتستخدم تلك الإيماءات المدهشة المتعاليه وترطن بتلك اللغة الأجنبية وتحرك وجهها هكذا في حضارة. وتزم شفتها السفلى هكذا وهي تتكر تصرفا أو معلومه.

ويا سلام لو استطاع أن يختار لها من بينهم زوجا.

" عارفه يا أمل؟ انتي هتبقي صاحبة شركه".

" صاحبة شركه!"

هتشوفي. مفيش حاجه بعيده عن ربنا".

شهادة ميلاد

" أرادت لها أن تنشأ في بيئة مختلفة لكن القدر لم يمهلها وكان الموت أسبق،"

أتت بها رشا حين كانت أمها منى خاضعة لمرحلة تشريح امتدت خمسة أيام.. قابلت سلامه على ناصية حارة دعبس قريبا من المستشفى. تفحصها سلامة وهي على يدي رشا.. ذاكر ملامحها والرعب يملؤه..طمأنته أنها ابنة لكلب آخر ممن كانوا يأكلون لحم منى.

لم يكن شيئ لديها في الحياة ذا قيمة ولم يكن لها بها رابط..ألقت نفسها حيث ألقتها الظروف ولم يكن لها من تلجأ إليه.. تتبع كل ريح وترسو حيث ألقتها الأمواج..لا همَّ لها إلا أن يمر اليوم وتنتهي الليالي.. كلما التجأت لهذه الأم لم تمنحها سوى الفراغ..بعض الأمهات حضنهن فراغ بارد.

حاولت ذات ليلة أن تخبرها بالخطر المحيط بها وتخبطها وحيرتها وحاجتها لمشورة الداعرة القديمه لكن نجيه استمعت إليها بين النوم واليقظة بتلك النظرة اللاهية ثم هزت رأسها وقالت "الصباح رباح"

تنازعها رجلان واستسلمت لكليهما..كانا يتنافسان عليها كدمية ولم يكن أحدهما ذا بال لديها. حين تغشاها حملها تغير كل شيئ. في البداية حزنت أن تلقي انسانا في هذا العالم لكنها اتخذت قرارا أن تصنع لوليدها حياة جديدة ليس فيها التهاء الأم وغيبوبة الأب ونهش الشقيق وخيال قديم من براثن خال. كل ما كانت تريده أن يكون لوليدها مكان وسقف..وأن يشملهم ذلك القانون

opelkan.com

الخفي الذي ضمن لهم المأوى في نهاية كل ليلة لكنها طمحت لمأوى أفضل.

ادخرت مالا وأرادت مالا أكثر..يعرف من عاش عيشتها معنى أن يولد الطفل ثريا.

أغدق عليها كلاهما ليس حبا ولكن لمجرد ألا يمتلكها الآخر وكان المال بغيتها فلم تبال على أي شط سوف ترسو السفين.انت لا تعلم ماذا يحدث حين يتنازع على أمثالنا ذوو السلطان..لسنا في أعينهم أكثر من قطعة أثاث ،جوربا يرتدونه ..حيوان في قفص..بل إنهم يعاملون قططهم وكلابهم بمودة أكثر. نحن اقتناء مؤقت كأعقاب سجائر يلفظونه بحقارة بعد دفق مائهم..

خططت أن تذهب بابنتها بعيدا وأن تشعرها بالدفء..ازداد احتياجها للمال أكثر حين أنجبتها وقبل أن تتم ابنتها ثلاثة أشهر..علم أحدهما أنها لدى الآخر في شقته البعيدة فأوداها بطعنات ملؤها الغل والغرور " أتتركيني أنا..يا كلبه؟ "

تمتع بعذابها قبل أن يقضي عليها..لصق فمها بشريط لاصق وعاتبها كثيرا وفي نهاية كل جملة يشرط مزعة من لحمها بخنجره..أتاها باحتقار وهي تنزف.. لم يقض عليها إلا حين مل العتاب ودفق الدماء واتساع الجراح، تقززت نفسه وغابت هي عن الوعي..وتمزقت بشرتها بشكل لم يعد يطيقه.

فَرَّ الآخر.. لم يزعج نفسه بمجرد الدفاع عنها بكلمة واحدة..لم يكن هناك ما يستحق أن يقف لأجله. كان حرصه الوحيد ألا يرد اسمه في التحقيقات..إن كان هناك تحقيقات. لم يُذكر اسم أيهما في التحقيقات واتُهم بالقتل والإغتصاب

عامل بناء فقير في المبنى المجاور.

كان أشدَ ما تخشاه أن تموت عاريه. كان تتعشم أن يمنحها الله لحظة توبة قبل النهايه. كان تعلم أن الله يعلم أنها لم تجد طريقا آخر وأنه أرأف من كل أحكام البشر وأنه سينظر لها في النهاية ويشير إليها ويقول تعال أيتها النفس التي لم يرحمها أحد. أيتها الأنفس التى حكم الجميع بأن النار مثوى لها. تعلقوا باسمي الرحيم واسكنوا في مساكن الذين ظلمهم الناس.. لقد خلق الجنة والنار في النهاية حتى لا يكون كل هذا الشقاء عبثا...

استمع إليها وعيناه ثابتتان كالأصنام.. كل هذا الذي يسمعه يتوافق تماما مع حقارة الحياة وقسوتها على مُنى..ملأه الغيظ والحنق والاستهتار....كان ناقما على الله والدنيا والدفء والعائلة والأب والأم والروح القدس. كان جامدا كالرخام ولما انتهت إلى التوبة امتعض.

لماذا يفضل الله أن يظهر في المشهد الأخير؟ ألم يكن هناك حين كان لحمها يُمزق؟ أنا لم أره ولم أشعر به حين عرانا الخال..لم أشعر بدفء وجوده في برودة السجن. ليته فقط يوم القيامة، إن كان هناك، يدلني على مكان عوف الليبي وقاتلها هذا والهارب الجبان ثم يلقينا معا في الجحيم.

" وضعهما الاجتماعي العالي وحقارة القتيلة في عيون الناس كفلا لكليهما النفاد من العقاب.

خافت أن تخبره عن اسميهما لكنها بعد إلحاح قالت إن أحدهما هشام مصلح والآخر محسن عزيز..

رجل أعمال وسياسي، ملاعب الكبار لا تقبل بنا إلا كمهرجين وخدم، أما أن تكون لنا حياة فلا.

التقط الطفلة بحنان والخوف يملؤه.. ضمها بشعور لم يسبق أن شعر به. شعر بالأبوة والحقارة والضياع والأهمية في الوقت نفسه...ربما يشعر بالخوف للمرة الأولى ..يشعر أنه أذى وأنها طهر خالص أولى به أن يبتعد عنه..يخشى أن يمتد الدنس الذي لطخ به أمها إليها. لا يذكر أنه وضع عينيه في عيني منى مرة واحدة لكن هذه العيون آسرة. احتضنت الصغيرة اصبعه لكفها الصغير..فلمع في قلبه نور الرب فجأه. رفع عينين كابيتين وقال لها بحزن

" ريحتها حلوه..ريحة بنت ناس.. "اخيرا بقى في ف حياة الواحد هدف."

" هتربيها"

" لأ ..هخلص العالم من اتنين أوساخ .. انا أولهم"

تركت له مالا وبعض مصاغ كانت تدخره منى لديها وأسلمته شنطة فيها ملابس الصغيره وأوصته أن ينفقه على أمل..هكذا أرادت لها منى أن تُسمَى..تمنت أن تراها يوما في لبس المدارس وأن تحمل الكتب وترسم. وأسلمته شنطة تحتوي ملابس الصغيره وهاتف شقيقته المحمول الذي يحتوي أسماء القاتل محسن عزيز الذي أنقذه نفوذه ورخص القتيلة من العقاب ويحتوي أيضا اسم رجل الأعمال هشام مصلح.

نظر إليها بعينين كالحتين

openkan.com

" مفيش حاجه تانيه.. مش مكمره حاجه؟"

لم يكن في قلبه نبضة واحدة لا تضخ سوء ظن. فاجأها سؤاله ووقته وطريقته.. سددت إليه نظرة جمعت كل احتقار وغضب العالم وقالت بحقد

"على فكره..انت أولى بالقتل من الكلبين التانيين..عارف ليه؟ عشان انت كنت جرحها الكبير..مش محسن عزت، مش هشام، مش عوف الليبي. انت اللي أكلت لحمك ني..مغطيتهاش..كلكم كلاب.. مفيش مره واحد فيكو خدها ف حضنه وقال لها مالك "

لطمها بكل قسوة فارتطمت بالأرض وكادت أمل أن تطيح من يديه. ما أن نطقت باسم عوف حتى انتفض كالكلب الشرس. انفجرت الذكرى كلغم مطمور وأطلت يد قاسية القبضه من ماض سحيق تخنقه بلا رحمة، لم يعد سرا إذاً.. اقترب ليركلها لكنه لم يستطع أن يصمد أمام قسوة نظرتها.. مضى بها وظلت عينا أمل عالقة بها حتى اختفت.

*****

استخرج لها شهادة ميلاد بتاريخ ١٩٩٦/١/١ وفي خانة الأب كتب اسم أبيه حموده.. أمل حموده ..بريق الاسم يعجبه رغم أنه يحتوي اسم أبيه الكريه.

التقتطها نجيه وألقتها بين السجاجيد ومحتويات الشقة.

." تعيش زي ماحنا عايشين."

obeikan.com

علق الأب تعليقا مقتضبا " وماله..يعني هي جت على ديه "

عوملت على إنها ابنة حموده الأفيونجي ونجيه العفش..وردة في أرض عطنة سرعان ما علاها الطين وشملها ناموس العائلة وشغل عنها سلامه من أول النهار لآخره..دارت في دورة حياتهم..يطلع النهار فتخرج إلى الشارع حول البيت عارية أو حافية..والأم تبيع الجرائد والأب يذهب إلى المقهى غير مرغوب في وجوده لكنه لا يبالي وكل الأشقاء يسرحون. عندما بلغت السادسة ألحقها بمدرسة سر الدين الفلواتي التي لا تبتعد عن الحارة إلا مسير أقدام..سميت باسمه لأنه أنهى حياته والسيف في يديه وبه حطم ممالك الطغاه.

استيقظوا جميعا للإحتفال بها في الزي المدرسي. أول تلميذة في عائلة الأفيونجي. حرص حموده الأفيونجي على اصطحابها في اليوم الأول وكانت بهجة رؤيتها في ملابس الدراسة أنقى في قلبه من أي شعور. احتفلوا بها جميعا وجهزت لها نجيه السندوتشات وأعطاها حموده جنيها كمصروف. تقمص كثيرا دور الجد معاها واشترى لها الكثير من البسكويت والحلوى.

في ذلك اليوم تمنى سلامه أن تراها رشا مرجان في ذلك اليوم أو أن يعرف مكانها وشعر أن فوقه من السماء أو حوله في مكان ما ليس يدري تحديده كانت روح منى حول هيئة أمل المدرسية تبتسم .

*****

في الحواري المغلقة ذات الفتحة الواحدة يتعايش الناس كأسرة واحدة ورغم

obeikan.com

تجنب أهل الحارة لأفراد هذه العائلة احتووا جميعا أمل فهذا يطعمها وهذا يرضيها بلعبة أو بسكوت..وحولها وفيها يتخوف سلامه خوفا إلى حد الجنون أن يكون بها ذئاب جدد يحكون أسطورة الفرخة والبيضه.

*****

obeikan.com

الظلام

"اقتلوني يا ثقاتي. إن في قتلي حياتي. وحياتي في مماتي. ومماتي في حياتي"[1]

لم يكن شيئ يرهق نفسه مثل الظلام. عوف وكهرمانة وصراخ ماجدة الذي كان يشق الليل فتسري الرعدة في ظهره. برودة السجن ووحشة البعد عن أي رفيق. الصمت والجنون والحبس الانفرادي. عزلة الذنب والحقارة التي تفرض الصمت وتكبل الروح. يحاول أن يرهق نفسه طوال النهار حتى ينهد ليلا لكن النوم عصي. يغفل لحظة أو لحظتين، لا يدري، ثم يبقى الليل كله يقظا يقارب الجنون.

داهمت قوة من الشرطة شقتهم تبحث عن ميكا. انتفض سلامه من فوق سريره وثبا إلى الأرض، تماما كما كان يفعل أيام الإصلاحيه. متصلبا وضع انتباه. لم يجد الضابط ميكا لكنه لم يغفل هذه الوقفة التي وقفها سلامه. تشمم انضباطه فوجده إثر حبس. رفع الملابس عن عضده فوجد علامة قديمة لا تُمحى من أثر السجن فأخذه معه للبحث في صحيفته الجنائيه.

في الطريق لم تعطف عليه العيون. كلهم يعرفون جبروته، لم يكن هناك غير الشماته. النهار جاف والشمس لاهبة وهمسهم يرى العدل في عذابه. تذكر يوم قيدوه جميعا وأخذوه للقسم تأييدا لحموده الأفيونجي. لم تبحث عيناه عن أبيه

---

(١) الحسين بن منصور الحلاج

obeikan.com

أو أمه بل كان محتاجا لرؤية عم جرجس.

ثلاث ليال قضاها داخل التخشيبة لا يذكر أنه قضى لحظة منها جالسا أو نائما بل قلقا يذرع الزنزانه جيئة وذهابا لا يدري كيف احتمل السجن ثلاث سنوات سابقة. يكاد ينفجر فيحطم الجدران أو يصرخ صرخة تبلغ الأرض والسماء والبحار والصحاري. أوشك على الجنون. الموت أهون من الحبس مرة أخرى. أخرجه الأستاذ عاكف باتصالاته الواسعه.

*****

أينما سار تلاحقه الريب. لا يدري ماذا يجدون بوجهه من علامات. حتى في الأماكن البعيدة يشعر بامتهان العيون وجر الشَكَل. عاد في إحدى الليالي متأخرا من مهمة أرسله فيها الأستاذ عاكف فاستوقفت لجنة مرور التاكسي الذي يركبه. أنزله الضابط وفتشه تفتيشا ذاتيا متقنا ومهينا في الشارع، رغم أنه لم يجد شيئا طلب منه أن ينتظر في سيارة البوكس. شعر أن الحياة تذكره دائما بحقيقته.. وأيضا أنقذه اتصال من الأستاذ عاكف. أدرك بعد العديد من التجارب أنه ليس شرطا أن يجدوا معه شيئا ليستوقفوه. شيئ ما في وجهه لا يروق لهم ولا للحياة نفسها.

*****

تملؤه الكآبة حين ينام وحين يصبح. خرج يوما على غير هدى. فغمت أنفه وعقله ذكرى سخونة كوب شاي بالحليب لا تتقنه غير الست رقيه. ماما رقيه كما كانت

obeikan.com

تحب أن ينادوها. عندما خلق الله أما كهذه، لم يعش لها أبناء.

تداهمه دائما رغبة قوية بلا تفسير في قتل الحاج حامد وزوجته الست رقيه، نفس الحقد الذي يملؤه تجاه عم عبده وأبنائه، كلما دخل إليهما قابلاه بنفس الترحاب. معبد الدفء والحنان، كوب شاي بالحليب. أبيض كنور الصبح تخالطه سُمرة كامنة ولا تطغى عليه. وترقد آمنة على قمة الكوب قطعة شاعرية من القشطه ودائما تشع منه المحبه. كانت جالسة وحدها، بنفس هيئتها القديمة المطمئنه. تمر السنون وهي هي. كيف يواقعك الحج حامد أيتها العجوز البدينه. إلام تدعين الزهد والعفاف؟ أي الأوضاع تريح ساقيك السمينتين؟ قل لي أيها الشيخ البعيد. أتسمح لي أن أواقع زوجتك أمامك. ألا تشتاق لسماع أنينها؟

رأت في عينيه نظرة فاحشة فاستوقفته بنظرة واحدة.. أرعبته. خلفها تماما رأى صورة ابنها عصام. مات في مثل عمره الآن، شعر أنه صغير جدا، مقفر الروح في فراغ متسع. ظلت جامدة مرعبة كالصخر. سحقه الصمت، خرج من بيتها صاغرا كامدا فارغ النفس لا يدري له وجهة.

مشى مطاطئ الرأس كعادته لكنه يشعر أن كل العيون عليه تحتقره وتعرف قبح نيته. ما أنت سوى دنس مطلق. عار أنت على كل الأماكن. شر محيط بمن يقارب. حتى الزكية الطاهرة الثكلى أيها الكلب العقور.

لمحت عيناه على البعد أمل. كانت فوق رجل عم عبده الخردواتي يطعمها بيديه قطعة من شيكولاته. هرع اليه كالمسعور. لم يفق إلا والرجل دامي الوجه والناس

كلها تتعجب من هذا الذي يضرب رجلا في عمر أبيه.

وقف حائرا لا يدري ما فعلت يداه ولم يجرؤ على التفسير. اكتشف أن الذي ضربه كان عم عبده، ليس رجل الأعمال ولا السياسي، ليس عوف الليبي. ولا الأفيونجي، ليس مفقوء العينين وليس هو نفسه، ليس الفراغ الذي احتواه فلم يعد هو، هو. هرب إلى بيته. يريد أن يحتويه أي مكان.

وصل ابنا عم عبده رضوان وعاطف متتابعين أحدهما خرج من المسجد والأخر عاد من المدرسة حيث، هالهما ما رأيا. اقتحما الشقة وهجما عليه بكل قسوة.

ظل على سكونه ولم يقاوم. أعجزته النظرة الجامدة كحد السكين وصورة عصام خلفها تنبذه. عشق انهزامه وعطف على ضاربيه وشملته رغبة عارمة أن يحتضنهم.

لم يكتفيا بضربه في شقته بل سحبوه إلى الشارع ليضربوه أمام نفس الناس، مضى في يديهما صاغرا كالأسير.

وما كان هذا ليرضي حموده ونجيه اللذين انضما للمعركة وصاحت نجية بصوتها الحياني وأفحشت في القول والشتم وعيرتهما بماجده ووجد حموده أخيرا شيئا يستغرقه. وادعى فرج العقل والحكمة لما رءا كفة الإقتتال في غير صالحهم.

" يا جماعه. ميصحش كده "

انتهت الموقعة بهزيمتهم هزيمة قاسية وتُرك سلامة على الأرض بلا رحمة.

openkan.com

دخلت نجية وحمودة الشقة وحدهما. أخرج حموده من جيبه عملة معدنية وأشعل حولها نارا بولاعته ثم كشفت له عن ظهر عار مقوس وراح يخط بالعملة فوق ظهرها خطوطا كعلامات الكرابيج. ادعت في القسم أن رضوان وعاطف حاولا اغتصاب أمل واقتحما الشقة ليجبروها على تسليمها لهما وأنها قاومت فجلداها وكشفت عن ظهرها الممزق بفعل كرباج عاطف ففقدت في هذه المعركة قرطا ذهبيا أعطاها إياه المرحوم المبروك عوف الليبي شقيقها وادعى حموده أنهم مزقزا ضلوعه ولم يرحموا شيبته. منظرهم البائس وعلامات المعركة على أجسادهم والسبق في تحرير المحضر جعل موقفهم القانوني

في غاية القوة وأُسقط في يد عم عبده وبنيه الذين يوشك البوليس أن يداهمهم في أي لحظة وتدخل كبراء الحي ولم يرض حمودة أن يتنازل عن المحضر وصاح فيهم

" القول مقطوع والكلام خلص. محدش ليه عندنا خاطر"

لم يشغلا بالهما في تلك الليلة بمبيت سلامه بالعناية المركزة بالمستشفى إلا بالقدر الذي يؤجج غضبهما ورفضهما للصلح ولم يشارك سوكه في الأمر منذ عرفه. ذهب للإطمئنان على أخيه في الليل ثم ذهب إلى عم عبده فوجد حوله رجال الحي. قابلوه بوجه مستهتر ودهمه المعلم أبو سالم بكلمة صدمته مرارتها وكشفت قلة حيلته

" والله احنا مش عارفين لك لون. مادام مش هتمشي عليهم كلمه، يبقى جي

ليه؟ "

أقنعوا عم عبده بالاعتذار. فوافق خوفا على ابنيه. ملأ أبناءه الغضب. لم يربيهما أبوهما على الخنوع وقبول الظلم وحبس الحق داخل أفواههما. أنفق عمره عليهم منذ ماتت زوجته

" وعلمهم شموخ النفس قبل قراءة الكتب" ١ كيف يُضرب؟

لكنهم استمعوا لصوت العقل لما علموا أن الحبس قد ينتظر أبيهم أيضا.

الشاعر الفلسطيني محمود درويش

توجه عم عبده مع حشد من كبراء الحي فأغلقت نجية دونهم الباب. وردد حمودة جملة حفظها من الأستاذ عاكف " القانون لازم ياخد مجراه "

كَبُرَ في نفس المعلم أبو سالم تاجر الأخشاب تصغيره وغلق الباب بوجهه فأسمعها كلمة كادت أن تشعل معركة جديدة

" صحيح. القحبه داديها والحره عاديها "

سمعت ولكنها رأت أن من الحكمة ألا تصطدم بمثل المعلم "أبو سالم.

لم يقبلا التنازل إلا بعد أخذا ثلاثة آلاف جنيه تعويضا عن تلفيات الشقة وبعثرة كرامته في الشارع وكسر ضلوعه وعذاب زوجته وضياع القرط المقدس. وكانت البداية. فتحة الخير على حموده الأفيونجي. اهتدى للمهنة التي اتقنها باقي عمره. المحاضر.

obeikan.com

اهتدت العائلة أخيرا إلى ما يمكن أن يجمعها. وجدت النار المؤججة في صدورهم منذ خُلقوا متنفسا. اختلاق وتصعيد كل خلاف بسيط وبراعة مكتسبة في الاقتحام والادعاء والبطش والغلو في الانفعال. كانت كل المؤهلات كامنة فيهم والأرض خصبة. لا مانع من علقة أسبوعية توفر الفا أو ألفين وخلفهم دائما الأستاذ عاكف، محام داهية، كهرمان، يعرف كيف يستل الشعرة من العجين.

عرف تماما كيف يستخدمهم. الكثير من القضايا يمكن حسمه قبل الوصول إلى المنصة. الخوف سلاح ماض والجبناء يصنعون الطغاة ثم ينصاعون لهم. تستطيع عائلة مثل هذه أن تكون أشد حسما من قاض ينظر الأوراق بدقة. الشيكات التي يراوغ أصحابها يمكن لبعض الإرهاب أن يقضي فيها بحكم مستعجل والمستحقون العاجزون عن الوصول لغاصبيهم يتمنون التنازل عن بعض مستحقاتهم لنيل بعضها. البحار واسعه. ولدي سباحون مهره.

وبعد أن كانت حبيبة الكل صارت أمل أكثر الأطفال نبذا في الحارة التي يتحاب فيه كل السكان إلا عائلة الأفيونجي. لم تعد تفهم ما يحدث وماذا تبيع الآن. تتبدل الأشياء حولها وتتبدل نظرة الناس والأحوال لكن نظرة واحدة تخيفها وتنشر الرعب والدهشة في مفاصلها كلما صادفتها. نظرة عاكف عبيد.

توسع النشاط وأصبحت المعارك حيثما اتفق. نضجت لعبة جر الشكل وأصبح لاعبوها محترفين يستطيعون ممارستها في كل وقت ومع أي شخص مهما كانت مكانته. أسلحتهم كفاءة حمودة واندفاعه وبأس سلامة ومعارف ميكا من الذين

يجدون الشهامة كلها في الالتفاف حول الصاحب. أما السلاح الأشد مضاء من كل هذا وأفتك فهو لسان نجية الذي يفوق سمه الأفعى.

لم يشارك سوكه في كل ذلك لكنه لم يكن بعيدا رغم ذلك، يشمله الناس في أحكامهم واحتقارهم وتجنبهم لعائلة الأفيونجي. غائص في الوحل إلى منتصفه لا يستطيع الولوج ولا الرجوع. لم يعد لومه الدائم ذو الصوت الهادئ مقنعا لهم. كان كالنغمة النشاز في سيمفونية حادة الصخب. لكنه رغم ذلك، شاء أم أبى، جزءً أصيلا في صخب اللحن العام.

ذهب إلى المسجد يستشير الشيخ إيهاب حسن فيما يمكنه أن يفعله ليبرأ فقال له الشيخ:

قالت العلماء " التخلي قبل التحلي "

" معلش. فهمني أكتر "

" لم يدرك موسى اليقين إلا بعد أن ألقى العصا. تخلى فتحلى.

ولم يُفدَ اسماعيل بالكبش إلا بعد أن هم أبوه بذبحه. تخلي. الرسول صلى الله عليه وسلم هاجر وصهيب تخلى فربح البيع. من تقرب إلى الله ذراعا تقرب الله إليه باعا ومن أتاه يمشي أتاه، سبحانه، هروله.

" طب ممكن أطلب منك طلب يا شيخ إيهاب؟ "

ابتسم الشيخ الشاب لما رأى سوكة ينظر حوله متوجسا أن يراه أحد وسحب يد الشيخ إيهاب ووضعها على بطنه وقال

obeikan.com

" ادع لي بالشفا "

" خير إن شاء الله"

" مش عارف حاسس إني مش مظبوط"

" ربنا يسعد قلبك أن شاء الله"

قام خارجا من المسجد وقد قر عزمه على قرار. وقال له الشيخ محفزا قبل أن يصل إلى الباب

" يا أحمد.إذا عزمت فامض"

*****

فاجأهم بقراره الجديد " أنا هابدأ على نضافه. هامشي من هنا خالص".

رد سلامه " يابني مش بمزاجك. ربنا هو اللي عملنا كده. أوساخ "

" هاتجوز واعيش على نضافه"".

" لا والنبي. كفايه عيله واحده. احنا نخلص عيلتنا على خير وكتر خير الدنيا انها استحملتنا".

ثم انكسرت نبرة صوته وهو يتمم جملته.

" عايز تخلف واد يطلع زيي ولا بنت زي منى".

لم يكن بحاجة للبحث عن إجابه. يشعر بينهم بالخمول دائما. الرغبة في الرحيل

obeikan.com

والبكاء واستغلال كل فرصة للهروب من تعبه ومن واقعه بالنوم. لعله إن ذهب من هذا الغثيان سيصحو. يكاد لا يشبع نوما. ينتابه الكسل وتأكله الكآبة. شعر أن في الرحيل شفاء من كل هذا. جمع القليل من المتعلقات ورحل.

وفي قرار نفسه فرح سلامة لقرار أخيه. ليته يستطيع أيضا أن يأخذ أمل ويبدآن على نضافه. لكن ما يربطه بقذارة هذا المكان أشد غموضا من أن يفهمه أو يفهمه أحد.

وبدأت نجيه في إهمال فرشة الجرايد إخلاصا للمهنة الجديدة خاصة بعد أن قام فرج ذات صباح فلم يستطع أن يحرك شقه الأيسر واعوج فاه وبدا بعد شهر واحد منطفئا كرغيف محترق.

أصبح سعيها الأساسي أن تشمشم في أي مكان عن معركة جديدة. جددت الشقة ببعض الحلل واشترت كنبه "بصحاره" تنام عليها بعيدا عن حموده.

ووجد حموده ضالته وشغل يومه. فلتسقط المشاريب والزبائن والكاشف والخطاطين. سينزل الفارس ساحة قتال أخرى. لن ينتظر الموتى يتساقطون بل سيسقطهم بنفسه من فوق سطوة جواده.

لن أكون بحاجة إلى سماع أصواتكم منذ الآن فأنا الذي سأصيح وأنتم تسمعون. سأهدم باب التكية وأقوض الأحجار الكبيرة. لن يبول العابرون على جسدها الأثري بعد اليوم.

أجاد الصياح والبطش والقاء نفسه في رحى المعارك كما أجاد الإنكسار

obeikan.com

والخنوع والهزيمة وأتقن إملاء المحاضر وانتقل نشاطه خارج الحارة المسدودة إلى الشارع الفسيح. هذه هي الحياة التي خُلق لها، يسمع الصخب فيها رغم صممه. وتسابقوا جميعا في إتقان رمي البلاء على الناس لا مانع من حرق باب شقتهم وانتقاء أحدهم لاتهامه بحرقها، لا يختلفون أبدا حول النسب التي تقوم نجية بتقسيمها بنفسها ولا ينسى سلامة أن يقتطع نسبة ويوصي أمه بادخارها لأمل وش السعد ولا مانع أن يذهب حموده لتقضية أوقات فراغه في المحكمة ليشهد زورا ضد أي شخص ولصالح أي شخص مادام هناك مقابل. مهنة علمه عاكف عبيد المحامي مبادئها منذ زمن قديم ثم صار فيها حبرا. يحمد الله أنهم توقفوا عن لسع اليد اليمنى لشاهد الزور كما كان يفعلون قديما. يستطيع الآن أن يرفع يمناه ويقسم أغلظ الأيمان بكل جساره.

ألقى نفسه ذات مره أمام سيارة الدكتور محمد عبد السميع طبيب أمراض النساء المهذب. نقله الطبيب بنفسه إلى المستشفى وتكفل بعلاجه من كدمة بالركبه. لكنه خرج من المستشفى إلى القسم بعد أن خبط رأسه في أحد الحوائط فاستلزم علاجا يتعدى الواحد وعشرين يوما وحرر محضرا جنائيا موثقا بتقرير الحكيم ضد الطبيب.

قرر الطبيب المثقف ألا يتخاذل أمام القبح والكذب ورفض ترضيته وذهب إلى المحكمة بكل ترفع وإباء بغير حتى أن يتخذ محاميا. وكذلك فعل حموده، لكن شتان بين دخلة الطبيب المستند لعلمه ورفعة مركزه على القاضي ودخلة الأفيونجي..

خلع طاقم أسنانه وتوجه نحو العسكري كأنه لا يعرف من القاضي فوجهه العسكري نحو القاضي

ـــــدائما يردد سلامه: "أنا أبويا لو خلع الطقم ياكل أتخن قاضي "

تعطن وجهه وأُطبق خداه وزم شفتيه وازداد انحناء وقال بفمه الأهتم الذي تحول في لحظة إلى وجه رجل عاد لتوه من القبر:

" مالكش دعوه بيهم يا حضرة القاضي. دي ناس واصله. احكم عليا انا ليضيعوك "

لم يكن القاضي ساذجا ولم تنطل عليه الحبكة الدراميه لكن دهشة الطبيب وسبه لحموده ووصفه بالعفن البشري أحرج موقفه تماما. وعندما ألقى حمودة محاضرة القتال في سيناء ومحنة رفاق الدم والنكبة، أثر هذا الجزء الأخير في القاضي الذي تذكر أياما مجيدة للوطن.

أربحه الأمر في النهاية خمسة آلاف جنيه ثمنا للتصالح مع تكفل الطبيب بكل مصروفات الدعوه.

أما أمل فلم تعد تلك اللطيفة التي أطلت عليه أول مره وبها مسحة من رائحة طبقة أخرى " وناس تانيين". صارت في السابعة من عمرها بالصف الأبتدائي الثاني. شديدة الذكاء بارعة في القراءة والحساب لكنها لا تطيق المدرسة والنظام والواجب، ملقاة بالشارع من طلوع النهار إلى آخره، قذرة تكره البيت ولا تعشق إلا الحرية التي تمنحها لها " ستو نجيه". فقد صارت مثلهم، عفن بشري.

obeikan.com

البصمة

موت فرج كان حدثا محرجا جدا. كانوا يتناولون العشاء جميعا حول الطبلية. شعر بألم في صدره، رقد ببطء وأخذ يشهق كالخروف المذبوح لساعة ثم أسلم الروح، همهم بكلمات لكنهم لم يتبينوا ما قال. سرى في البيت طيف الليلة الأخيرة في حياة الخال عوف الليبي وطيف كهرمانه.

وقفوا مدهوشين تماما. كان لا بدَّ أن يموت محترقا.أكمل سلامة طعامه ثابت القلب والعينين حتى شبع. نظرت نجيه نفس نظرتها اللاهية وهزت رأسها تلك الهزة اللامبالية.

قامت تلم الصحون وهي تقول:

" اركنوه على جنب".

لم توافق ميتته نبوءة عوف الليبي وكهرمانه لكنها وافقت أمنيته.

*****

كان يتمنى أن يموت بين أفراد هذه العائلة وفي هذه الشقة. لم يعرف أهلا غيرهم منذ جاء من قريته البعيده ولما يتخطى الخامسة والعشرين بعد. طلق زوجته لعجزه عن الإنجاب وهاجر بسبب معايرة أهلها في تلك البلاد البعيدة حيث تتنقص رجولة الرجل إن لم يكن قادرا على الإنجاب. صاروا هم أهله

obeikan.com

وأبناءه واختلط بهم كالفول المحوج المخلوط بالزيت والملح والبصل ولم يعد هناك فرق بين زوجة وصديق وزوج وأبناء وأب. خليط من مذاقات مختلفة هُرست في قِدر واحده.

رست بجرائدها وأثقال عمرها على مرفئه وصارت اصطباحة الزبائن بأطباق الفول تتبعها مسيرتهم بالجرائد. ويمكنك أن تأخذ أي شيئ من حمودة مقابل إصبع حشيش. ينزل من ميدان القتال ببضاعة من خواتم وساعات يرسلها الجنود ليستبدلوها بمال من أجل ذويهم. يعشق البط الحشيش والأفيون. مدهشون يمنحون أي شيئ ما وجدوا المقابل. وليس هناك مقابل يعادل الدفء الذي منحوه.

"لماذا لا تستريح بالبيت قليلا؟ خللي بالك من نجيه. خللي بالك من أحمد. خللي بالك م العيال"

"هات بريزه يا عم فرج. هات شلن" يكبرون قليلا " هات خمسه جنيه " لم يمانعوه في شيئ ولم تحرمه نجية متعة القيلولة ولا غنج النساء ولم تتح له الفرصة للحزن على الزوجة "قليلة الأصل ناكرة الجميل"

لم يخل طابعها رغم ذلك من خسة تظهر إن قل عطاؤه. لكنها أظهرت معدنا نفيسا حين أصابه الشلل. أوى إليهم كما يأوي الضب الجريح إلى جحره ليموت فيه. سمحت له بالبقاء بينهم. تحسنت معايشهم فلم تعد عطاياه هي المعين الوحيد فشمله أكلهم وشرابهم ولم يتضجر أي من الأبناء به.

*****

obeikan.com

أبان ميكا عن معدن جديد فاتخذ قرارات سريعه. أبلغ المستشفى واستعار من الجيران مروحتين ثبتهما على جسد فرج وانتظر حتى الصباح ليتمم إجراءات الغسل والدفن والجنازه. ثم غطى المكان سكون كامل. نظر الجميع إلى الجثة دون أن ينطقوا كلمة واحدة. بدا طيبا جدا في سكون الموت. توجهت نحوه نجية من خلف رأسه وخلعت الإيشارب وحومته حول رأسه وفكه لتطبقه.. أطاعها فكه في خفة وارتفعت رأسه نحوها كأنما يريد أن يلقي عليها نظرة من الضفة الأخرى لكنها أحكمت شد الوثاق رافضة كعادتها تخطي الواقع فأدارت وجهها عن المجهول. ثم تسربوا واحدا بعد الآخر إلى حيث ينامون ثم قطع السكون عزف الأنوف ودوى الشخير كمبارزة بالسيوف.

*****

حل الظلام بكثافة وهجم العدو على الكتيبة المرابطة. وهب الرجال يواجهون الموت كالأساطير، رءوس تطير وأذرع تتناثر وصياح ودوي صاخب. وتسلل من بين النيام شبح قصير مدكوك يحبو في ستر الظلام. نظر حوله مستوثقا من الموقع. زحف ببطء مستندا على ساعديه. يمر من تحت أسلاك شائكة. اتخذ الظلام ساترا واحتمى بالدُشم وتساقطت حوله فوارغ الرصاص وفغمت أنفه رائحة الدم والرمال. ووصل إلى الجثة الملقاة. لم يعد لها شأن بالدنيا. بم يفيدها أن تلقى الله بهذا الخاتم وهذه المحفظة وهذا الطعام. بل وهذا السن الذهبي.

تحسس كل جيوبه وخلع خاتمه الفضي الكبير

ودوى صوت قنبلة فوق رأسه فتناثر الرفاق أشلاء.

" بتعمل ايه يا راجل يا ناقص "

مسح وجهه بكفيه الضئيلين من أثر البصقة واستدار نحوها ببطء وقال:

" أنا اللي ناقص. الناس تقول ايه لما تلاقيه ميت عندنا يا مره يا وسخه؟ "

" هيقولوا عليا ولا عليك؟ "

بديا في الظلام كنسرين عملاقين جارحين يتفاوضان بالمناقير والمخالب حول جيفة. لم يكن وجهاهما وهيئتهما نفس الهيئة العجوز المنكسرة. كانا متحجرين خاليين من المشاعر.

آثر النسر الذكر الانسحاب فبادرته:

" هات الخاتم ده. "

كانت في أثناء الحديث تشير بيديها رغم أنه يفهمها بلا كلام. أشارت إليه وقالت

"تعالى هنا"

أقبل نحوها يحبو على أربع. يعرف هذا الوجه الجاد.ورغم أنه لا يسمعها، حين تدعوه بهذه الطريقة فهي تدبر لأمر ذي بال. أشارت إليه أن يقرب أذنه ففعل وفتح فمه ورفع حاجبيه وأصبح كله أذنا صاغيه تلتقط كل كلمه.

" روح لأي واحد من الأوساخ بتوعك. بتوع المحكمه. خليهم يكتبولك حالا عقد

obeikan.com

بيع وشراء فرج البايع وانت المشتري. روح لعاكف عبيد.هو هيعمل العقد.قل له بأمارة الجرجير"

" جرجير؟ انتي لسه فاكره"

نظرت إليه نطرة زاجرة فسألها "

طب هاشتري إيه؟ "

" المحل يا دغف "

نهض واقفا وارتدى ملابسه وذهب ثم عاد بعد ساعة خائبا فاشلا. عرفت من مظهره سوء منقلبه

" على وشك يبان يا نداغ اللبان. عملت أيه؟ "

قال بغير أن يبدو أنه سمعها " طردني"

"أشارت إليه أن يصمت لئلا يوقظ النيام وتلفحت بعباءتها وخرجت وهو يتبعها.

اتسعت خطواتها وتسارعت، ومنذ هذه اللحظة حتى أنهت ما أضمرت كانت متسارعة الخطى والقرارات. أبهج حموده الظن أنها غاضبة من أجله.

صعدا معا سلما حلزونيا ودقت على باب عاكف عبيد فخرج إليها مدعيا عدم الاهتمام. سدد نظرة متقززة لحموده فنظر حموده إلى زوجته.

طلبت عقدا من نسختين وسددت إليه لهجة آمره

" اعمل اللي قال لك عليه"

ادعى عدم الاهتمام وتثاءب بخمول فتوجهت إليه كاللبؤة الشرسه.

" باقولك إيه. احنا دافنينه سوا. لو معملتش زي ما باقولك هافضحك وافرج الناس عليك. انت نسيت ولا إيه كانوا هيحبسوك ويقطعوك حتت بتوع الجرجير لو عرفوا. اعمل العقد".

نظرت لحموده وأشارت إليه أنيفتح الباب ففتحه فعادت لعاكف عبيد وقالت حاسمة كل جدال

" هاقلعلك ملط هنا والم الناس عليك واحكي القديم والجديد.انت هتعملهم عليا. تمثلية الشرف دي احنا اللي مألفينها، مش دا حموده اللي كنت بتحفظه يشهد ازاي في المحكمه ويورد لك الشهود؟

بقى يوم ما تنضف تنضف عليا أنا ياعاكف عبيد؟ "

أشعل سيجاره ثم تناول العقد صامتا وكتبه بهدوء سألها وهو يكتب

" امل عامله إيه؟ "

ثبتت عينيها عليه وهو يكتب. شعر بنظرتها فلم يرفع عينيه عن الأوراق

" ملكش دعوه بيها"

فرغ من كتابة العقد فنادي زوجها وأشار إليه أين يبصم هو وأين يبصم فرج.

obeikan.com

" استنى. عملته بتاريخ امتى؟ "

"النهاردة"

ردت بتخاذل ممزوج بلهجة آمره " أنا عايزاه بتاريخ قديم. من سنه فاتت"

خاف أن يستوضحها موفرا كل كلمة ممكن أن تخرج من لسانها الأشبه بقاذفات المنجنيق التي لن تحرق شقته فقط بل شقته وسمعته وشقق الجيران وتاريخ قديم من التعاون بينه وبينها والأفيونجي.

قام كالمنوم وجلب من درج مكتبه عقدين جديدين وملأهما من جديد.يعلم تماما أنها لا تستطيع القراءة لكنه شعر أنها ستفهم لو خالف ما تريد بحرف واحد.سألته عن بصامة فأعطاها. عادا معا. كانت متسارعة الخطى وكان حموده خلفها يلهث ورغم ذلك لم يكن قادرا أن يدركها فانتهرته،

" شَهِّل شويه قبل مايزرق"

توجها نحو جثة فرج وأحاطاه في ضوء شمعة ضعيف وتناولت إبهامه وبصمته حيث أشار عاكف عبيد وسحبت إبهام زوجها وأشارت إليه أين يبصم.

استيقظت أمل فوجدت عيونهم الحمراء في ضوء اللهب الخافت تعبثان بالجسد الذي قالوا عنه ميت وامتلأت رعبا بينما كانا يتحركان من جسده إلى الطبلية يفرشان العقدين عليها وفرج ممسك بالشمعة كأنه الشيطان وظلهما على الحائط مهولا ومرعبا. بهتت مشلولة من الرعب فانتبهت لها نجيه. صاحت فيها بكلمة واحدة

" نامي"

ألقت نفسها في حضن سلامه على الفور.

*****

في الصباح التقت عينا نجية بعيني عاكف عبيد الذي كان ذاهبا إلى عمله. نادت سعد الصاوي بائع الجرجير واستندت عليه فمضى عاكف عبيد في طريقه.

في جنازة فرج التزمت عائلة الأفيونجي بكافة الإجـراءات، كان ما في جيب القتيل يسمح بذلك وزياده، تلقى حموده عزاء المعزين عند المقبرة كما يتلقى الأخ عزاء أخيه. كان متأثرا بالفعل، صادقا في تأثره وحزنه، هذا شيئ آخر. كحزنه الصادق على الرفاق أيام المعارك، وسرت من عينيه دمعة هاربه وهو يتذكر فرج وأيامه وسخاءه الذي لا ينسى ونظر إلى القبر الذي غطاه التراب نظرة أخيرة وهو يناجي صاحبه:

" مع السلامه يا فرج"

*****

بعد أسبوع واحد تفاوض حموده الأفيونجي بأمر نجيه على بيع المحل لصاحب العقار المعلم أبو سالم بستة آلاف جنيه.

obeikan.com

نجية

في الشتاء تتشع الرطوبة من الجدران والبلاط القديم ويسطو البرد على الباب المتهالك الذي لا يستطع أمام غزو الهواء شيئا. قديما كانت الأغطية قليلة فيتقاسمونها بالتدثر والتلاحم ولا سبيل إلى النوم في الشتاء بغير إشعال الوابور بجوار نجيه. لم يستطع أحد فهم قدرتها على النوم وقد غطت جسدها ومدت يدها مرفوعة بالغطاء فوقه. دفء اجتماعهم حوله وصوت وناته المتتابعة هما المذاق الوحيد الذي استوعبوه من معنى الأسره. كثيرا ما ضحكوا صغارا للتنافس حول من يضع يديه فوق حثيث النار فيستغل الآخر وقت فركها ليضع يده هو. وإذا سقط المطر فتلك هي الفرحة الكبرى. تطرأ على قلوبهم المحبة ويخرجون جميعا ثم يعودون فلا تُعرَف ملامحم من الطين والبهجة.

أما شهور الصيف فهي شهور اختناق وعرق حيث المكان كالفرن يهج منه الجميع وتسرح في قذارته الصراصير والحشرات. وتطغى على قلوبهم الكراهية والنزوات والفحش وحينما يهج المحرورون من البيت يأوي إليه المستخفون بأسرارهم. قديما كان هذا وقت اهتياج الخال في الركن القصي. ثم قيلولة فرج ونجيه. ثم فترة العصاري الآثمة.

*****

ما زال سقف حجرتهم يزداد سوادا كالقطران ويرسم من الرطوبة والدخان

صورا مرعبة بلا شكل محدد لكن الخائفين في برد الليالي يرسمون بأخيلتهم ما يشاءون من صور. لعلها كهرمانة ما زالت تتلون وتظهر لهم بين الحين والآخر باحثة عن أثر الخال أو باحثة عن آخر تسحبه إلى باطن الأرض العميق.

*****

لا يعرفون أين وكيف تتبخر تعويضات المعارك لكنهم صاروا لا يعرفون الجوع. لم يسأل سلامه لكرهه لأي نجاح في الحياة ولم يتعود حموده أن يسأل عن كيفية إدارة هذه الحياة. بعد قليل تجنبهم الناس خوفا من تجنيهم فقلت المحاضر والقضايا ومرت أيام وأشهر هادئة مله أكلهم فيها الفراغ. سنوات قليلة تمر لكن أثرها على وجوههم وأرواحهم كان شديد التسارع .

استند حموده على عصا وصار يذهب إلى المسجد بين الحين والآخر بغير انتظام ويزعج المصلين تماما بصوته العالي في أثناء الصلاة. تستند خطته مع الله على اتفاق ضمني قديم سمعه من أحد الشيوخ أن المرء إذا تاب في نهاية عمره جب ذلك ما مضى من ذنوب وعاد كيوم ولدته أمه. يذهب بعد صلاة العشاء إلى المقهى فيجلس مسمرا على أحد الكراسي حتى يغلبه النوم على كرسيه. لم يعد في ذاكرته غير ذكرى واحدة لم تخب ذكراها أبدا رغم اندثار كل ذكرى أخرى. يمسح وجهه بين الحين والآخر لكنها تظل ثابته. ثم رقد بعد أن وقع وهو يتوضأ فتوقف تماما عن الذهاب إلى المقهى والمسجد، لم يعد يفعل شيئا غير أن يأكل ويأكل وينادي رفاق الحرب ويهذي بكلام لا يفهمه ولا يعبأ بفهمه أحد

وتخطت نجية الستين بخمس ولم تعد تستطيع السير بغير أن تستند على كتفي أمل. تتسلمها منذ خروجها من مدرستها ظهرا ولا تعود بها إلا في الليل. منظر الكتب المدرسيه وشنطة المدرسة مفيد جدا ومربح لبائعة جائلة صغيره. تطابقت ملامح أمل كثيرا بمنى حد أن نجية كثيرا ما نادتها باسمها. تذهب بها إلى الأماكن البعيدة ثم تقر على أي رصيف في مواجهة السيارات بينما تتجول أمل ذات الأحد عشر عاما بين السيارات تبيع المناديل، محترفة طلقة اللسان رشيقة الحركة تدرك بحس عبقري الزبون الأنسب والسيارة التي لن تردها.

تعثرت خطاها المرهقة من قلة النوم بين السيارات وكادت تقع حين انفلت الطرف الأمامي من شبشبها " أبو صباع " وهي تعدو نحو سيارة. لم تستطع أن تصل إليها. حملت الشبشب في يدها.

مر من أمامها قائد إحدى السيارات ببطء مرتكزا بإحدى يديه على شباك سيارته وأكثر تركيزه على وجه أمل. سألته التي بجواره " أتعرفها"

أجاب مقتضبا " لا".

حاولت إدخال الطرف الخارج في الفتحة المتسعة فانفلت مرة أخرى. ذهبت إلى أمها "نجيه" فأخذته منها وبحثت في الأرض عن مسمار صغير. أدخلت الطرف الصغير في الفتحة المنفرجة وثقبته من أسفل ثم ثبتت المسمار تحته بالعرض فثبت الشبشب. ارتدته أمل مندهشة من هذا الحل البسيط المدهش. دفعتها نجية لتكمل بيع المناديل.

كانت تقدم دائما حلولا بسيطة وسريعة.

يدخل سلامه مشجوج الرأس فتكبس رأسه بحفنة ملء يديها من البن وهي تتمتم للبن كأنها كهرمانه " اشرب الدم كالغراب. اشرب الدم كالغراب".

ويأتي ضباط البوليس وأمناء الشرطة بحثا عن تاجر الحشيش الصغير فتخلع ثيابها فورا وتقف عارية في وسط الشقة أيا كان من فيها وتصرخ

" محدش يخش. أنا عريانه. جرى ايه يا حكومه. هوا معادش في خشى؟

فيهرب ميكا من شباك الكبنيه الصغير إلى المنور المؤدي لشارع المستشفى.

وتنشب نذر نزاع بين سلامه وسوكه فتفض الصراع قبل أن يحتدم بشق ملابسها من عند صدرها نزولا إلى باقي جسمها وتطلق صيحة أشد حسما من سارينة الإسعاف " يا أختي"

تمد الحرف الإخير إلى أن تنقطع أنفاسها فتهدأ كل الأطراف المتنازعة.

تقرقع ضحكة لاهية كلما ادعى حمودة أنه كشفها فتفرض الألفة عليه. ليس ألفة عهرها فقط ولكن ألفة ادعائه التغافل. فيسكن الزوج ويطمئن الرفيق.

صار سلامة ذو الثلاثين عاما رجلا مرهوب الجانب وواصلا ذا معارف. ثبتت على وجهه ملامح الغضب والنقمة، تقبل عليه الدنيا ويستمر لكنه يكره كل لحظة نجاح. أدمن صحبة الليل والسير في الأماكن البعيدة حتى ترهق قدماه. ينتابه الضجر كلما أصبح عليه الصباح. وأصبح ميكا ثعلبا شابا وتاجرا أريبا يعرف كيف يستولد النقود ويصاحب الليل والفرص البعيدة ويتعامل في كل أنواع

التجارة. صار رجلا في الرابعة والعشرين لولا أنه يخفي ثروته لعُد من كبار رجال الأعمال. لم يعد يزور الحارة إلا قليلا.

يحرص في كل زياره أن يصطحب أمل إلى محمود الكبابجي لتغرق في الكباب والكفتة. يأكل معها قليلا ثم يتوقف عن الأكل تماما ويستند إلى كرسيه مصدرا صوتا غريبا كالأزيز وهو يسلك أسنانه ويشعل سيجارة مستمتعا برؤيتها وكلما رفعت عيناها إليه ابتسم لها. طلب منها أن تذهب معه وتعيش معه كالأميره لكنها رفضت متعللة أنها لا تستطيع أن تترك ستها نجيه.

خرج بها من عند الكبابجي في إحدى المرات فراقها أن رأت من بعيد قردا مسلسا يدور به صاحبه على المقاهي فيرقص على نغم الطبلة ثم يدور الرجل مادا يده وطبلته فيلقي له المارة ماتيسر لديهم من مال. أعجبها المشهد جدا لكن كانت هذه هي المرة الأولى التي ترى وجهه ممتعضا بهذا الشكل وهو يصيح بها في قسوة " كفايه بقى"

مرا على بائع أدوات موسيقيه فوقفت أمام الباترينه دهشة بما ترى. أراد أن يصالحها فطلب منها أن تختار آله تحبها فاختارت آلة الفلوت دون أن تعرف ما هي وقالت:

" مش عارفه ليه نفسي أشوف سلامه بيعزف عليه".

اشتراه لها. وحقق لها سلامه ما أرادت بلحن منفر.

*****

obeikan.com

اتخذ ميكا مسكنا خاصا في السادس من أكتوبر ولم يعد يزورهم إلا لماما. تأنقت ملابسه واختلف مظهره. يجلس قليلا ثم يصطحب أمل ويخرج. عاد بها ذات يوم وبيدها أعظم هداياه. لاب توب. ولما رأى فرحتها الطاغية عرض عليها ميكا أن تساعده في بعض تجارته فعشقت الكمبيوتر وألعابه وأسامي مكوناته وأنواعه والأبعد من ذلك أنها صارت تنطقها بلغة سليمة. أقسم لها أنه سوف يجعلها أصغر صاحبة أكبر شركة كمبيوتر في البلد.

*****

obeikan.com

المأوى

في ليلة باردة من ليالي الشتاء عاد سوكة، بعد أن غاب ثلاثة أعوام كامله، تكسو وجهه سمات الخجل والتردد والهزيمه. منذ رأوه آخر مره. كان قد ترك المقهى منذ شهرين. خلفه دخلت بدريه الصاوي بنت على الصاوي بائع الجرجير، تدفع أمامها بطنها مثقلة بحمل في الشهر الرابع. بدا على ملامحها الإرهاق وعلامات الضنى والحزن، كانت ضامرة الوجه مائلة إلى السواد بيدها صرة ملابس. ترتدي ثوبا أسود كالحا مغبرا وقد غطت رأسها بإيشارب داكن ويحمل وجهها إرهاقا ورغبة قاسية في البكاء.

*****

تزوجا منذ عامين. أراد أن يطيب حياته بتطييب حياتها وأن يشفي جراحه بشفاء جراحها..

" بقى انت هتتجوز واحده زيي. دانت عارف كل حاجه"

" أنا بصراحه معرفش حد أوسخ مني. لو وافقتي بيا يبقى كتر خيرك"

احتواها بحنان وغفران يقبل كل خطايا البشر ورأى فيها جوهرا كان خفيا على العالم. ورأت فيه أبا وعائلة غفرت فيها للزمان كل شقاء السنين. رأى كلاهما في الآخر نفس السر القديم الذي رآه الشيخ نبيل في ماجده ورأته ماجده في نبيل. السر الذي لا توجد كلمات لشرحه، الرابط الذي لا تراه العيون لكنه أوثق من الحديد.كان لها، كما كانت له، النصف المكمل للروح.

ألقاها أبواها منذ ولدت في الشارع قابعة فوق قفص الجرجير ثم لم يعبأوا حين اغتصبها الجار المثقف ولم يصدقها أحد.وشهدت نجية وشهد حموده باستحالة ذلك.

" بقى الأستاذ عاكف عبيد يعمل كده. بلاش افترا ع الناس، دا راجل واصل"

كم قبضت مقابل شهادتك يا أم منى؟

هدأت الأمور كأن شيئا لم يكن وظل الأستاذ هو الوجيه المثقف الذي " مش ممكن يعمل كده " وصارت هي المتجنية التي تريد توريط الشرفاء وظلت إلى الأبد.متهمة.

وعادت له بحزم الجرجير ثم مات ذووها بغير أن يدافعوا عنها. قال لها أبوها في نزعه الأخير

" أنا عارف ان احنا ظلمناكي. سامحيني يا بدريه"

مضحك هذا الاعتراف حد الألم. أتتبرأ أمامي أم أمام الرب؟ وماذا يفيد الآن وقد قُتِلت بدريه ألف مرة ولم يعد يجديها اعترافك. أما السماح فهو من قلبه إليكم. سوكه الحبيب.

وصار السقوط بعد ذلك مريعا وسريعا. تعدى الجرجير بكثير.

منذ ماتت منى توقفت عن بيع نفسها واحتملت الجوع والقذارة وسندوتشات التي لا تحمل أي مذاق سوى لسعة الجرجير ثم احتوتها جارتهم الطيبة رقية بعد وفاة زوجها الحج حامد.صدقة كل شهر وطعاما خفيا بين الحين والحين واستطاعت

obeikan.com

أن تعيش إلى أن جاء سوكه. رجل ليس ككل الرجال، إنه يمتلئ حنانا وغفرانا، يعاملها كبشر ويحيطها بحنان لم تره من قبل. كأنه جزاء جميل على عناء العمر.

" كل اللي فات من عمري كوم وانت في عمري كوم تاني"

" لو كل تعب عمري انت المكافأه عليه. انا مسامح"

صممت الست رقيه أن يُكتب الكتاب في بيتها هي وأولمت لهما في بيتها " حلة الاتفاق " وختمت العشاء بكوبي شاي بالحليب واعتذرت بعجزها عن إطلاق زغرودة تليق بفرحتها بهما،

اتخذا شقة بنظام الإيجار الجديد.عندما لمسها للمرة الأولى عرفت معنى اللذة البكر، ذاقت طعما مختلفا تناولته الروح قبل الجسد.ريانا عذبا لا يخلفه ترخص وازدراء بل ابتسامة رضا وحضن حميم دافئ وشبع العمر من حنان لم تذقه يوما. وذاق معها أخيرا طعم العائله.

لكنها الأيام دوما. حبلى بكل غريب. كما قال الواعظ القديم: إذا أقبلت أدبرت وإذا حلت أوحلت وإن كست أوكست.

اكتشف إصابته بتليف في الكبد سرعان ما تطور إلى سرطان، قاوم حتى سقط ولم يعد شيئ كافيا لا لإيجار ولا لطعام ولا لسكنى ولا لعلاج. ليس شرطا في هذه الحياة أن تشقى كل عمرك ثم تسرد لأبنائك من فوق كرسي وثير قصة نجاحك المبهرة. قد تشقى وتضيع ثم تذوب في قلب الشقاء فلا يشعر بك أحد. العقار الواحد من " السولفادي" يتخطى الألفين جنيه.

obeikan.com

تَذكُر بدريه مثلا ضربه لها أبوها سعد الصاوي يوما وظلت ترى تحققه كلما وعت.

" جال له رايح فين يا فقر؟ جال رايح للناس اللي عارفهم

جال له دول غاروا ماتوا. جال باجيه خلايفهم"

*****

قال سوكه " أنا قلت بدل ما نقعد في شقه إيجار جديد نعيش في وسطكم "

رد سلامه الذي أخذه الغضب لدرجة أنه لم يرحب بأخيه وما زال دهشا من اختياره وكلاهما يعلم الماضي بحذافيره الدقيقة المخزيه. "

وسطنا فين "

هذا المكان لا يليق إلا بمن يحتويهم الآن. ألم تنج من هذا الروث. فقر هذا المكان لا يليق إلا بقفر أرواح من فيه.

لم يجبه وأوشك الصمت بينهما أن يتحول إلى احتدام وألقت هي بؤجتها على الأرض وانطرحت. لم تكن تبالي بشيئ غير يستريح سوكه. ولم تكن تبالي أن تقابل نظرته المحتقرة بنظرة متحديه. توقعت في الحياة صراعا من نوع جديد.

لم يجد سوكة ردا مناسبا على كلمات سلامه. لم يأت إليهم إلا بعد أن تأكد أنه أوشك أن يموت كل ما يريده أن يكون لابنه أو لابنته مكان وسقف. وأن يجد ما يأكله حتى لو كان سقطات عظم يذوقها للمرة الأولى من بقايا الخال. وأن

يشملهم ذلك القانون الخفي الذي ضمن لهم المأوى في نهاية كل ليلة. لم يدر كيف نشأوا ولم يخططوا لأكلة واحدة مرتبة في هذا البيت لكنهم كانوا يأكلون ويشربون ويمر بهم الليل والنهار ويجدهم الزمان أحياء يرزقون. خذلته صحته في المقهى. كشفه شحوبه وقلة جهده. صارت المسافة بين النصبة وطاولات الزبائن كمسافة صحراوية شاسعة تطغى عليها شمس يوليو. فضحه لونه الأصفر ونحوله المتتابع. سقطت من يديه المشاريب ونزف أنفه بلا توقف. أخبرهم طبيب المستشفى بحالته من نظرة واحده لصفرة جلده وعينه وهزاله طالب بحجزه في المستشفى لإجراء تحاليل. رفض وذهب مستندا على أشرف إلى البيت

" أنا باموت"

ارتجت نجيه للمرة الأولى وشعر سلامه نحوه بحنان عميق، اراد أن يحتضنه لكن صمتا ألجمه فلم يتكلم كلمة واحدة. لم يستوضحوا الأمر منه لكنهم يعرفون صدقه. لم يجهر ابدا بشكوى طوال حياته ولولا تضجره من تصرفاتهم ازاء الناس لما شعروا بغضبه يوما.

فكَّت الأم العمشاء الموقف حين قامت متكئة فوق المرتبة القطنية وقالت.

" خليهم. اهو يعيشوا زي ماحنا عايشين".

أرادت أن تمنح نفسها فرصة للإستيعاب. تمنت ألا يسأله أحد عما به الآن. تفر دائما من مواجهة المصائب في لحظتها الأولى، تستمهل الأيام قليلا لعلها

openkan.com

تتقشع. لم تنجح طريقتها هذه مع ابنتها منى في الليلة الأخيرة لكنها ستنتظر سوكه في الصباح وستبذل كل غال في سبيله.

قامت فجهزت لهم السرير الأسفل ونادت بدريه بحنان

" تعالي يا حبيبتي ارتاحي هنا. الصباح رباح".

" هو انت طول عمرك تقوليلنا الصباح رباح ولا ع عمرنا شفنا صباح ولا رباح"

ضحكوا جميعا وكانت جملة ميكا بداية لتبادل ذكريات مضحكة عن قصص " الصباح رباح " وتذكروا عوف الليبي وفرج وليلة حبسهم جميعا بعد إحدى المعارك وضحكوا جميعا حتى أدمعوا.

سلَّكَت نجية " فونية" الوابور وأعطته نفسين قويين فاندفع الجاز بداخله وتوالت دفقاته وتناثرت بعض قطرات حوله وعلت وناته وامتلأ المكان بالدخان ثم بالدفء ثم تسربوا واحدا بعد الآخر وناموا. نام سوكه وبدريه على سرير منى. وغطى المكان سكون تام لم يقطعه سوى عزف الأنوف ودوى الشخير كمبارزة بالدفوف. عاد شخير سوكه الضخم المجهد وأضاف دوي شخير بدريه الرفيع نغما إلى الألحان الشائهة الشاذه. وسري في الليل هواء أسطوري وحلموا جميعا بكهرمانه.

*****

اخترق الليل العميق صوت صراخ وعواء مرعب وامرأة تلتف وتدور داخل كتلة

obeikan.com

من النار. حاولوا انقاذها لكنها كانت تجري وتدور متلفعة باللهب وحموده يصرخ ويثب من مكانه مطلقا صراخا وعواء وهزيا. جرى سلامة نحو سطل ماء وحاول سوكه اطفاءها بيديه وألقى ميكا فوقها بطانية مهترئه لكنهم كانوا جميعا متأخرين بلحظه. اللحظة التي قضوها حتى استوعبوا أنها ليست كهرمانه بل نجيه. ناضلت وتلوت وسكن حموده تماما منتظرا نتيجة الصراع بين النار ونجيه وهي تلتف في رفض.. هل يستطيع الموت أن ينال منها؟ هل سيهزمها اللهب؟ ثم سقطت نظرته وهوت مع سقوطها الصامت الأخير في رقصة هي الأخيرة.. ثم ثبتت على الأرض كقطعة فحم في وضع جلوس.

ماتت فلم تر الصباح.

openkan.com

رضا

توسط الأستاذ عاكف المجلس في وسط مقهى الكاشف وحوله حشد كبير من رجال الحي وخلفه يافطة زاهية بعرض الحائط تسطع عليها صورته بجوارعلم مصر وعليها كُتب

" مرشحكم لمجلس الشعب". مرشح الحزب الوطني الديمقراطي رمز الميزان

واستهل خطبته بعد هتاف شديد وتصفيق من حاشية المعلم أبو سالم وأهل المنطقة وزبائن مقهى الكاشف وقد جلس على يمينه شاب شديد التأنق اسمه رضا يضفي على الجلسة بأناقته وابتسامته العذبة جوا من الوقار والتميز وعلى يسار الأستاذ عاكف جلس المعلم إبراهيم الكاشف. فكان الاثنان عن يمينه وشماله وصلا بين الماضي العريق والمستقبل المبشر بالأمل

" اشهد أن لا اله الا الله وأثني عليه بما هو أهله وأشهد أن محمدا عبد الله ورسوله بلغ الأمانة وأدى الرسالة وجاهد في سبيل الله حتى أتاه اليقين وتركنا على المحجة البيضاء لا يزيغ عنها إلا هالك ثم أما بعد. ليس للإنسان إلا ثلاثة طرق في هذه الحياة، العمل بكتاب الله ثم العمل بسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ثم العرف المعمول به بين الناس وإذا ما صادف غير ذلك قاس على فعل الصالحين ثم أسند الأمر لأهل العلم. كل ما غير ذلك أقرب للباطل منه إلى الحق. مش حاقول اكتر من كده وانتم عارفين عاكف عبيد ولست أرجو من ترشيحكم غير صالحكم ويعلم الله أنني لست بحاجة إلى هذا المنصب إلا

obeikan.com

لخدمة أهلي. أهل الحي...

" هو انت إخوان ولا إيه يا عاكف بيه؟ "

" الدين مش بتاع الإخوان ولا غيرهم يا عم ثابت. الدين لله،"

انتهى المحفوظ من كلامه ثم بدأ التبسط فأكمل:

"الشباب العاطل والناس التعبانه والغلاء وصعوبة العيش ومصاريف المدارس والشوارع المكسره والقمامة وعلاج الفقراء وتيسير الزواج. المشاكل دي وغيرها هي الرساله التي سأعمل عليها. لن يكون هذا بجهد وحدي بل بكم ومن أجلكم. فلا تحرموني أصواتكم. وعلى الله قصد السبيل".

قبل أن ينتهي من كلامه كان التصفيق والهتاف يسبقه.

قام وهم يتحلقون حوله يتناوبون الأسئلة وتلقي الوعود، همس لسلامه في خفاء مصطنع:

" روح مع رضا. وقل لهم زي ما قلت لك"

عاد سلامه معلنا أن الأستاذ رضا " عايزهم في كلمتين"

تكلم الشاب المتأنق في صوت شديد الاتساق وبمعان شديدة الترتيب فأخذ بمجامعهم منذ اللحظة الأولى ثم شرح لهم بهدوء كيفية إتمام التصويت على الوجه الأكمل حيث شرح أن كل من سيدخل اللجنة سيجد ورقة انتخاب عليها أسماء المرشحين وأن لكل ناخب الحق في تسويد المربع الخالي أمام مرشحه

obeikan.com

ولتوفير المشقة على أهل الحي سيكون معنا أمام اللجنة هذا...

أخرج من حقيبته الأنيقة نموذجا لبطاقة الترشيح.

" سيتسلم كل واحد منكم مثل هذه البطاقة قبل دخوله اللجنة،"

عرضها عليهم وأشار لهم إلى المكان الذي تم فيه تسويد خانة عاكف عبيد بالفعل.

" وسيتسلم الناخب من القاضي بالداخل بطاقة خاليه. كل ما عليكم أن تضعوا الورقة التي دخلتم بها في الصندوق وتخرجوا إلينا بالورقة الخالية ليتم تسويدها من جديد. وإكراما لجهدكم الثمين الغالي وثقتكم وشرف وعودكم سيتسلم كل ناخب مائة جنيه لقاء تسليم البطاقة الخالية"

انتهى كلام الشاب الوسيم فقطع سلامه أفكارهم بقوله

" واللي مش هيصوت لنا برضه هنعرفه"

راقت المستمعين صياغته الراقية لبيع الصوت الإنتخابي ولم يخف عليهم كرم الأستاذ كما لم يخف عليهم التهديد الذي تحمله نبرة صوت سلامه.

تكررت نفس الجلسه بمقاهى الصباح والحريه وكل مقاهي الدائره. تكررت بكل أركانها. الأستاذ وعم ثابت ورضا وورقة الانتخاب السحريه وتهديد سلامه.

صعد سلامه مسرعا إلى الأستاذ في مكتبه

" كلهم في جيبك الصغير يا باشا "

obeikan.com

" حتى لو مش معانا. احنا مسنودين قوي، متقلقش".

" حاسبت ع المشاريب؟

" حاسبت يا باشا"

فاضل معاك كام؟ "

" ٦٠٠ جنيه يا باشا"

" حلال عليك".

ارتسمت على وجه سلامه ابتسامة كلبيه توافق رغبة الأستاذ تماما.

" ليا عندك طلب يا باشا"

" خير"

" عايزين نطلع قرار علاج على نفقة الدوله لسوكه أخويا"

" يا سلام بس كده. بكره يكون عندك"

"بكره؟ "

" آه بكره مستغرب ليه؟ يا بني احنا بنطلعه لناس ميتين. انتوا اللي زيكوا ولا دريان بحاجه".

امتلأت الشوارع باليافطات تحتوي كل رموز العدالة والأمانة والمحبة وكافة القيم النبيلة وتنافس المرشحون في عرض برامجهم الإنتخابية المذهلة لكن

obeikan.com

الناس ينتهون من كل اجتماع يعرضه مرشح إلى سؤال واحد هو كم ثمن الصوت. يسألون رغم أن معظمهم أضمر في نفسه اتباع عطايا الأستاذ عاكف وأمن بطش سلامه وعصابته.

obeikan.com

العائلة

هذا هو الوقت المناسب للإنسحاب بشرف.

لم يطق سوكه البقاء بالبيت أكثر من أسبوع واحد.لا بدَّ من إيجاد عمل آخر فليس هناك وقت للوقوف وللبكاء وندب الحظ. بدرية حامل. لا بدَّ لها من راحة وغذاء.

هذا الفكر الأبوي يطوف بهذه الشقة للمرة الأولى فاستدعى بدوره حنانا من آخرين ولولا حنان إبراهيم الكاشف وذلك الزميل الشهم عذب الابتسامة أشرف النوبي لما استطاع الوفاء بدواء ولا بطعام.

انتقل فورا لحيث كانت الأم قابعة طوال عمرها. بيع الجرائد.عارضه سلامه وميكا. عرضوا عليه أن يكفوه مؤنة العلاج والولادة بل وتربية الوليد.تحدث ميكا لأول مره عن قدراته الماليه وأعلن أنه يستطيع أن يعالجه حيثما أراد.

" انشاالله ف بلاد بره"

لكنه رفض أي مساعده. لمتعة الشقاء على العيال من جهة ومن جهة أخرى كان قد أضمر قرارا خفيا ألا يطعم أو يشرب من مال ميكا أو مال سلامه. قرر أن يعمل فترتين، عملين مريحين.

بيع الجرائد صباحا ثم تلميع الأحذية في الليل.

obeikan.com

لم يكن العمل الجديد يسيرا كما ظن. بدا له أنها كانت تبذل جهدا ضخما لم يكن يشعر به أحد.تذهب إلى المورد في نهاية شارع السد بالسيدة زينب مع طلوع النهار وتعود بحمل كبير من الورق فوق رأسها إلى مكانها بآخر شارع سكة راتب بالحلمية. هل كان كل هذا الجهد من أجل أسرتها أم كان من أجل البقاء بجوار فرج؟ لا بدَّ أنها كانت تبذل نفس الجهد بالبيت ولا يدري أحد وإلا كيف كبروا وأكلوا وشربوا قبل أن يشق كل واحد منهم طريقه في الحياة.

كلما جلس بعد رص الجرائد والمجلات انتابه الوهن والنوم. لا يستطيع له مقاومة ولا يدري متى يغلبه. قد يصحو ليجد الناس اشترت وتركت ثمن الجريدة في حِجره. الكسب هين يعد بالقروش.

غفا يوما بجوار الجرائد وبين النوم واليقظة سمع صوتا عذبا قديما يردد للناس أثمان الجرائد ويبيعها لهم بكل احتراف. في عالم ضبابي بين الحلم والحقيقة ابتسم. دغدغه الصوت، سرى في قلبه وملأ أذنه منذ نشأته الأولى، قديم بقدم عمره، صوت منى. استكمل إحساسه الجميل بذكرى اللعب تحت المطر. نفس الصوت والنغم الرخيم. فتح عينيه والحنين يملؤه فوجدها أمل بجواره خرجت من مدرستها الإعدادية وتوجهت إليه تساعده.

أكسبها بيع المناديل والالتحام المباشر بالمشترين مهارة فائقة. اكتسبت مهارات البيع بالصوت والأيدي والعيون. البداية والوسط والنهاية، مزاحها لغرض، حفظها للأدعية التي ترصها رصا لأصحاب السيارات واستغلال جمال عينيها وبراءة محياها. توظف كل إمكانيتها في دفع حركة البيع للأمام. وفوق

هذا أصبحت تماما على نفس هيئة منى. العيون الواسعات الهادئة والشفاة الحلوة الممتلئه والوجه المستدير الصافي والشعر البرئ القصير. الفارق الوحيد أن أمل مليئة فعلا بالأمل.

يذهب إلى المنزل ليستريح قليلا فيغلبه النوم أيضا فتتركه بدريه نائما ساعة أو ساعتين تجهز أثنائها الغداء وتسأل الله في كل لحظة أن يحفظ حياتها هكذا. كما هي بنفس هذه البساطه. لا تريد شيئا آخر. يستيقظ فيأكل ويجالسها قليلا والعشق يملؤهما وبينهما أمل ثم يعود إلى الشارع يسرح وبين يديه صندوق صغير لمسح الأحذية. تناديه في كل يوم أمل

" آجي معاك يا سوكه؟

يضحك مجيبا

" لأ كله إلا ديه. ذاكري انتي بس "

يمضي بين المقاهي وهو يدق صندوقه مرددا " حد يلمع حد يلمع" ثم يجلس عند إحداها ويجمع عددا من الأحذية مصغيا إلى رزع القواشيط وصوت القهوجي يكاد يقوم بنفسه لتنفيذ طلبات الزبائن.

أحرجه يوما أن همس أحد رواد المقهى القديم في أذن أحد الذين أعطوه أحذيتهم فقام الرجل من فوره ساحبا حذاءه

" معلش مش عايز ألمع "

لا بدَّ أنه اخبره بعلته المعدية.

فاجأه ميكا قبل أن يخرج من بيته ذات صباح بالدخول حاملا الجرايد فوق "تريسكل" وقال:

" يا عم محرم على نفسك فلوسنا. خلينا نجيب لك الجرايد "

ثم خرج وعاد له بالهدية التالية، صندوق مسح أحذية من خشب الكونتر في جوانبه الأربعة متسع لكافة أصباغ التلميع ومكان لوضع الفرشاة مؤطر بغلالة قطنية لتقي جسده احتكاك حواف الصندوق ومعلق بحزام يعلقه بسهولة على الكتف وكرسي صغير جدا مُنجَد ليجلس عليه بدلا من جلسة القرفصاء المتعبة.

ابتسامته مرهقة. أراد أن يحتضنه لكنه يخاف القرب ممن يحب. سيطر عليه الوهم أنه عدوى متنقلة. لقد خاف الرجل على حذائه منه. ابتسم على البعد فبدا جلد وجهه مترهلا تحت أسنان بارزة. لكن ميكا اندفع وألقى نفسه بين ذراعيه وهو يبكي ويصرخ

"أنت أبويا وأخويا"

أبدى الجميع نحو سوكة حنانا كان خافيا. كان رمز الإنسانية الوحيد في هذه العائلة. لكن وجوده الآن ورغم مرضه أضفى عليهم جوا أسريا وتلاحما لم يعهدوه في أنفسهم من قبل.

ونظفت بدرية سقف الضقة فرأوا سماءها مختلفا للمرة الأولى.

الكحول

أخرج الأستاذ عاكف عقدا وقلما من درج مكتبه وقدمه لسلامه

" امض هنا"

مضى بخط ركيك في مدة أرهقت الأستاذ. لم يكن يجيد من الكتابة غير اسمه ثم سأل

" دا إيه ياباشا "

" الشغلانه الجديده. اترقيت، "

لم يبدُ عليه الفهم فاستأنف الأستاذ

" دا عقد بيع بيت مساحته ٤٦٠ متر في ركن فاروق في حلوان"

" مش فاهم"

" مش لازم. امض ع الإيصال ده "

" معلش إيصال يبقى لازم أفهم "

ابتسم الأستاذ عاكف وأشعل سيجارته ثم قال

" تعجبني. البيت دا تمنه مليون جنيه، بتاع موكل عندي ورثه عن أبوه. مشكلته إنه مش عارف يخرج السكان. البيت كله على بعضه بيجيب إيجار ٣٢٠

obeikan.com

جنيه. مفيهوش غير شقه واحده فاضيه ف الدورا الأرضي. سلاملك. انت بقى اشتريته. المطلوب منك يا حلو إنك تخرج لنا السكان. تاخد نصيبك وتستلم الإيصال. وصلت؟

" وصلت يا باشا "

" المتعب في البيت كله هو الساكن اللي في الدور التاني. مدرس. هو الزعيم اللي مقويهم. راجل بتاع قيم ومبادئ وحاجات من دي".

لم ينقض شهر واحد إلا والسكان القدامى كلهم يضجون بالسكان الجدد، خمسة رفاق لسلامه سكنوا الدور الأرضي. أحدهم عربجي والآخر سباك والباقين قوة بلطجيه طاغيه. ركن العربجي عربته الكارو أمام البيت وأدخل الحمار في مدخل البيت ببرسيمه وروثه ونهيقه. وقطع روشه السباك المياه تماما عن الأدوار الأربعة التي يقطن أعلاها رجل مسن وزوجته وابنهم الشاب. اعترض الرجل المسن فتدخل ابنه الشاب ليحل مشكلة المياه. دق على الباب بكل أدب.

" المياه مقطوعه من ساعة ما حضراتكم سكنتم هنا"

" انت راجل مش محترم. واحنا مالنا"

" مالكم ازاي؟ ولزومه ايه الغلط؟ طب والحمار دا؟ "

" الحمار دا ساكن زيك انت وأهلك"

" انت قليل الأدب".

لم يكن مطلوبا منه إلا أن يقول ذلك. هجم الثلاثة عليه فضربوه ضربا طاغيا باغيا لا رحمة فيه. نزل الأب المسن فنال نصيبا كبيرا من الضرب والتنكيل ولما ذهب إلى القسم وجدهم قد حرروا محضرا مسبقا قبلها بيومين بأن السكان يتواطئون لطردهم من المنزل. وحضر الأستاذ الشاب رضا المحامي في الوقت المناسب. ودخل عوض العربجي مبطوح الرأس وبيده تقرير طبي بأن حالته تستلزم العلاج لأكثر من واحد وعشرين يوما. نزل المدرس ليلا حين عادوا من القسم ليطمئن على العربجي، دخل متهللا باشا مرتديا حمالات حمراء لا تخفي كرشه الضخم وعرض عليهم شقته مقابل المبلغ الذي يقدرونه هم

" زي مانتوا شايفين. دانتوا ناس كُمَل "

أما الفتاة الأنيقة دارسة الطب بالدور الأول فلم تطق أن تمر ذهابا وعودة على روث الحمار أو أن يصل خطيبها الطبيب في أحد الأيام فيمر بهذا المشهد وراعها أن تطالب أهلها بمجابهة السكان الجدد اتقاء لبطشهم.

تقدم سلامه، صاحب البيت الجديد، بعرض مالي متواضع للسكان لإخلاء المنزل فوافقوا على المبدأ لكنهم اعترضوا على المبلغ المعروض فسمحت نفس الأستاذ عاكف بتطبيق مبدأه الدائم القائم على الإحتياج والعطاء ومرحبا بالوصول إلى مرحلة التفاوض فزاد لهم سلامة المبلغ فرحل السكان تباعا عدا الساكن بالدور الأول فقد كان عنيدا تطلب طرده باقي الشهر فأُحرق باب شقته وشتم ذهابا وإيابا ثم فوجئ بروشه وعوض يقتحمان عليه شقته ويطالبانه بإدخال الحمار لأن الجو بارد. كانت مجرد رؤية روشه بعينه الحمراء وعضلات جسمه النافره

تصيبه بالقشعريره وقبل أن يجيب كان عوض العربجي، المتمرس في تصعيد الحمار على الكباري والسلالم ممسكا بخطام الحمار، قد دخل بنصفه الشقه. ثم عرض عليه سلامه في اليوم الثاني مبلغا مضاعفا تقديرا لبسالته وصموده.

عاد يبشر الأستاذ بالبيت الخالي.

أجزل له ولرفاقه العطاء وقرر أن يثق به في أعمال أكبر.

*****

بداخله لم يكن سعيدا بتلك الحياة الجديده. يشعر أنه يمضي عكس السير. تلك البدايات بشيرة وقلبه يضمر البحث عن نهايه. ربما يليق هذا بشاب في بداية حياته كالأستاذ رضا المحامي الذي يستقبل الحياة بوجه بشوش لا يعلم أحد ما تخفيه تلك الابتسامه. ربما يضمر خطة متأنية بطيئة الحيل ليرث مكتب الأستاذ عاكف المقطوع الأصل والنسل، لذلك يلزمه الوقت.

يعلم تماما أنه سيضع الحد لحياته بيديه. يدخل في غمار المشاكل بقلب ميت لعل أحدهم يتعطف عليه بطعنة قاضية. لقد خلقه الله في الحياة مؤذيا. ليس ما يعذبه ضمير أو رغبة أن يكون شكلا آخر لما خُلق عليه. لم يوجد بعد ما يستحق أن يعيش من أجله، كل شيئ حوله يدعوه للموت والملل. أكثر ما يتوق إليه أن يحتويه قبر مظلم.

*****

على هذا النهج سارت المهام التالية. إيذاء وإخلاء. بيوت، محلات، ضرب،

obeikan.com

محاضر، تكسير واجهات. لا تؤثر فيه دعوات الضحايا لكن أكثر ما كان يدهشه سهولة المهمات وسهولة تنازل أصحاب الحقوق عن حقوقهم. يسبقه صيته فينجز نصف المهام ويجد المتنازلون دائما علات تنازلهم قبل أن يوجدها لهم ويذاكرون سجل جرائمه فينتقون ما يناسب خوفهم. لا يصمد إلا قليل ممن يظنون أن لهم سندًا في قسم أو مركز وهنا يكون دور الأستاذ عاكف..

دائرة صراع مفرغة يتسلح أحد طرفيها بالبطش والعتاد وسلطة الأستاذ بينما يتسلح الآخر بدموعه وسجاجيد الصلاة وما زال سقف الحجرة يزداد سوادا لا يبلغ نهاية وقتامة. بلا حدود.

*****

openkan.com

الست رقية

في يوم السيرك الإنتخابي كان الأستاذ رضا في كامل هيئته أناقة ووضاءة وصبر وحسن ارشاد كمن يقف في ليلة عرسه، يستمع بإنصات ويوجه بحنان ويتحمل زحام الأسئله ووقف في خدمته سلامه على باب لجنة وعوض العربجي الذي باع الحمار وأصبح يرتدي أثواب أهل البندر على باب نفس اللجنة ورفيقه روشه السباك على باب لجنة وتوزع الرفاق على باقي اللجان في يد كل واحد منهم عشر رزم من فئة المائة جنيه يتسلمها الناخب بعد أن يسلم بطاقته الإنتخابيه الخالية ويثبت حقه الإنتخابي بالمسوده. واحتشد خلق كثير على أبواب اللجان كلٌ يريد أن يمارس هذا الحق. أما داخل اللجان فقد أشرف القضاء على هذه الانتخابات ولم يجبر أحد أحدا على التصويت لمرشح بعينه ما عنون هذه الانتخابات في صدر الجرائد كلها بالإنتخابات النزيهة.

فعل الخصوم المرشحون الشيئ نفسه على أبواب اللجان، وليس بالداخل النزيه، لكن بطش سلامه ورفاقه ألزمهم بالصمت الإنتخابي ولم يصمد فتوات المرشحين الآخرين أمام عصيهم وجزرهم.

مرت الست رقيه تتكئ على عصاها واخترقتهم تتهادى في بطء شديد، بادر شرطي على باب اللجنة يسندها فاتكأت بيدها الأخرى على ساعده حتى وصلت إلى لجنتها.عرض عليها عوض البطاقة فأشارت بظهر يديها رافضة

وصلت إلى مكتب القاضي الذي سلمها ورقة الترشيح وما زال الشرطي بجوارها عارضا المساعدة حتى انتهت من التصويت الذي كانت تؤديه خالصا ومخلصا

obeikan.com

في حب البلد. خرجت تتمتم بأدعية لم يعد أحد في الحارة يسمعها إلا منها ترددها منذ وعوا " ربنا يابني يوقف لكم ولاد الحلال. يكفيكوا شر الخطرات، ربنا يسدد خطاكم، يكفيكم شر حاكم ظالم".

وصل رضوان وعاطف إلى نفس اللجنة فعرض عليهما العربجي المائة جنيها وهو يسلمها البطاقة المسوده فسأله "رضوان بجفاء

" بتاعة إيه "

" مش بتاعة حاجه يا باشا دا تقدير لتعبك. في حب مصر"

" هي مصر باعتاك تدي فلوس"

" لأ. عاكف بيه. مرشح الحزب الحاكم"

امتلأت نفسه غيظا فاضحا لا يريد له كتما. غيظا يريد أن يبدي نفسه في صياح. لم يدر كيف يطلقه. أيضرب قائد الجحش الذي أمامه أم يصيح بالناس جميعا أن أفيقوا

فاعتلى تبة جندي يحرس المكان وصاح

" صوتك للحق أمانه. صوتك دانه.

ستفجر عرش الظلم بكل مكان. بصوتك يعتدل الميزان "[1]

تجنب سلامه مواجهته وأشار إلى رجاله ألا يقربه أحد.

---

(١) tفؤاد حداد

obeikan.com

"يا ناس، يارجاله، يا حريم، اللي يبيع صوته بيبيع بلده. بيبيع نفسه. عيب، شرف الإنسان هو الكلمه".

نهره العسكري الواقف قبل أن يبدأ قصيدة أخرى

" انزل يا أستاذ. انت جي تعمل شغب ولا ايه؟ "

مر صياحه كالصمت لم يلتفت إليه إلا قليل. في هذا اليوم كان صوت خشخشة المائة جنيه أشد مضاء من كل دواوين الشعراء. وظلت الوفود تترى ووصل التزاحم حد الصراع.

قالت له امرأة مسنة في شبه اعتذار: " محتاجين يا بني. هنعمل ايه"

وقال آخر " أنا باخد الفلوس آه بس بادخل انتخب اللي على مزاجي،"

سمعه عوض العربجي فنظر إليه شذرا فاستأنف الرجل

" يعني عاكف بيه. المرشح الوطني"

وظهرت النتيجة في مساء اليوم التالي كاسحة بفوز الأستاذ عاكف عبيد بأغلبية ساحقة. احتفلت القهوة بهم هذه الليلة أيما احتفاء وكانت كل المشاريب على حساب عاكف بيه. وفي روعة الإحتفال والهتاف والإنفعال انقلب الشاب الجميل رضا المحامي إلى شخص آخر..

تحول بعد نجاح عاكف إلى شخص آخر أقرب للأهوج منه لذلك الشاب الراقي الذي كان في الصباح، تهدلت ملابسه من فرط نشاطه وهو يهتف من جوف

عروقه ويخطب ويهلل ويتوقف بين كل جملتين مطالبا الحضور بالتصفيق ويرصع تاج الأستاذ عاكف بصفات أقرب للنبوة والأساطير..وفجأة سقط ميتا إثر توقف القلب فجأة...

منظره نائما على أجهزة تعليق المرء بين الحياة والموت كانت أشبه بتحول النهار الناصع إلى ليل اسود غطيس.. أولى بمن نحب ألا نراهم في هذا التشبث الواهي بالأمل.

أبدى الأستاذ عاكف حزنا شديدا على رضا ثم اصطحب سلامه في سيارته بعد العزاء.

جالسه على سطح فيلته الفارهة بالتجمع الخامس وحششا طوال الليل، نادمه منادمة الصديق وقام على الخدمة عوض العربجي وروشه السباك. ودارت برأسيهما قطعة الحشيش الصافية. ذهبت أدمغتهما المسطولة كل المذاهب فهمست في رأس سلامه ذكرى قديمة لجلسات عوف الليبي وحموده وفرج وتحت أقدامهم حوريه الشامي تلاغي إبراهيم المكوجي فاهتاج لذكراها وهي تدس الغسيل في طبق الغسيل. كيف عساها تبدو الآن. رحلت من الحارة بعد قتل المكوجي. حاول تذكر اسم المكوجي وعصر ذهنه لكنه لم يستطع. قطع أفكاره سؤال الأستاذ عن أحوال أمل. تَلاقَى ذلك بنفس اللحظة التي كان يفكر فيها بحوريه فالتفت غاضبا

" وانت مالك ومال أمل؟

obeikan.com

رأي في عينيه الحمراء توثبا. حاول أن يجعل الأمر يبدو طبيعيا، لكن انتشاء الحشيش قد يمنحك البهجة لكنه لا يمنحك القدرة على الإختفاء. فكر كيف يسحب كلمته.

فوجئ بسلامة يضع يده في موقد الفحم المشتعل بغير أن ينتاب وجهه ألم.

ليس هذا رد فعل ابن نجيه. تحول انصياع الكلب إلى زمجرة ذئب. هل يعرف ما كان؟

ازدرد الأستاذ ريقه بصعوبه وسادهم صمت غريب.

obeikan.com

السحاره

" امرأة أحبت فصارت قديسة" [1]

أبدت بدريه صمودا وأبدت عفة لم تكن تتصورها في نفسها. لم يقربها زوجها منذ علم بعلته ومنذ أخبره الطبيب أن المرض يمكن أن ينتقل إليها من خلال التلاقي. يملؤه الشوق فيمتنع. لكن حنان روحه وروحها أشبع عروقهما حتى الرواء. صارت له الأم والزوجة والطبيبة. مسحت السلالم لكنها لم تتسول. واجهت نظرات الأندال بجمود وتغافل وترحم. مسحت الشقق، غسلت السيارات. بل غسلت سيارة عاكف عبيد نفسه، قاتلها القديم، فعلت كل ما تستطيع أن تفعله امرأة كبيرة في موقف كبير. بررت وجودها لديهم بتنظيف الشقة والعمل فيها كخادمة.

"أعطاها الأستاذ عاكف مبلغا كبيرا مقابل غسل السيارة ثم قال

" ما تيجي تنضفيلي الشقه بالمره يا بدريه"

استنفرتها جرأته وتحفزت لقتال. وقفت مستقيمة العود رافعة حاجبيها رأسيا

" الوساخه اللي ف شقتك مش هتنضف أبدًا "

أوشك أن يرد لكن خاف أن تثير زوبعة توقظ الجرم القديم وتصحح الشكوك الدفينه. كانت متنمرة عملاقه. اشتدت قامتها في استعلاء وتقازم أمامها حتى أوشك أن يتلاشى. ليس هناك اليوم نجية، كل حصانته البرلمانية لا تساوي في

(١) توفيق الحكيم

هذا الموقف حذق نجيه.

أخذت ثمن غسيل السيارة وألقت الباقي على الأرض. وظلت واقفة أمامه كالطود تنتظر أن يتكلم كلمه. تلفت الأستاذ حوله ينظر هل يراه أحد.ذلك ما يشغله دائما. ثم ركع على الأرض أمامها والتقط المبلغ. وركب عضو مجلس الشعب سيارته الفارهة ومضى.

سألها سوكه عما بها حين دخلت فقالت

"أبدا يا حبيبي. بس الواحد بيقابل حاجات كتير ملهاش لازمه لحد مايلاقي الحاجه اللي ليها لزمه "

"حتى لو ضاعت بعد كده. كفايه انه لقاها.

ارتمت في حضنه تقبل رأسه ويديه

" انت الحاجه الوحيده اللي حبيتها ف حياتي. قبلك كنت باتمنى الموت. دلوقت بحب الحياة"

" عارفه لو مكنتيش ف حياتي كان زمان الدنيا شكلها إيه؟ "

" يا نهار أبيض. يا نهار أبيض. انت اللي بتقول كده؟ "

*****

تناوبته أعراض متناقضة في مراحل شتى. نوم وغثيان وقئ وإسهال وامساك واضطراب في كل شيئ. نحل جسده وعلا بطنه في تشكل محزن.

Obeikan.com

اطلع الطبيب على التحاليل المطلوبه. وقرر ألا يخدعهم بالأمل"

" ليس أمامه سوى ستة أشهر. الكبد والطحال متليفين تماما والموضوع اتطور. ".

قاطعه سلامة

" مفيش ف ربنا أمل؟ "

قال الطبيب محاولا تبسيط الأمور قدر المستطاع

" الميزه في الكبد إنه ممكن يشتغل بأقل من ربع كفائته. يعني تلاقي الواحد رايح وجي قدامك. إنما مفيش أي ضمان. لسه مفيش علاج. زرع الكبد أظن هيحتاج مصاريف انتم مش قدها وبرضه الأمل ضعيف. ربنا كبير"

ظل سلامه مثبتا نظره عليه وفتح فمه وجز على أسنانه وزر عينيه ثم أخذ أخاه وخرج.

أثر سقوط سوكة في سلامة أكثر من أي شيئ آخر. قال موجها حديثه إلى بدريه

"ليه مش أنا؟ ليه مش ده؟

أشار إلى أبيه المرمي ككومة من الرماد لا يعقل شيئا.

" قضا ربنا. ماباليد حيلة"

صمت ولم يعلق.

رفعت كنبة نجية للمرة الألى منذ ماتت لتمسح تحتها فوجدت عفنا لم تكن تتخيله ثم فتحت "الصحارة" لتنظفها فوجدت في تجويفها العميق ملابس مهلهله وبقايا طعام نظفتها وتوغلت يدها قليلا فاصدمت بصرة في أحد جوانبها، التقطتها وفكت الرباط المحكم فوجدت بداخلها ذهبا وآلاف الجنيهات وصليب عوف الليبي وقرطا كانت تدعي سرقته في كل " خناقه" وهاتف محمول قديم سلمته رشا لسلامه يوم سلمته أمل.

انتظرت حتى عاد سوكه وسلمته الصرة كما هي. انتظر بدوره حتى عاد سلامة واستدعوا ميكا.

" الوليه كانت سايبانا ميتين م الجوع وهي مخزنه كنز"

" طب كانت سايباه لمين؟ "

" تلاقيها فلوس كهرمانه "

شملت ميكا نوبة كرم وقال

" خدي الحاجات دي كلها ليكي يا بدرية، " بس هاتلنا بطتين والنبي من بتوع فرج"

انفجروا جميعا في الضحك حتى الدموع.

قال ميكا لسلامه

" فاكر لما ضربتني عشان بيضه مسلوقه"

obeikan.com

تلكأت الضحكة على فم سلامه ثم قال

" الظاهر أنا كل مشاكلي في الدنيا كانت بسبب البيض "

شيئ أساسي تغير بداخلهم من غير أن يشعر أحد.حولهم وجود سوكه وبدريه إلى عائلة أخرى وأصبح الذين كانوا يتقاتلون من أجل بيضة مسلوقة يدفعون عن أنفسهم كنز نجية، نجية التي اختصرت نزاعات وصراعات حياتها في هذه الصُرة لم يعد يرغب بها أحد. تخطى ميكا مرحلة العوز وكره سلامة كل ما تقبل به الدنيا عليه من نجاح.

رد سوكه عائدا بهم إلى الأمر الأساسي

" وبدريه تعمل ايه بالفلوس دي كلها. دي بتاعتكو انتم"

قال سلامه

" أنا مش هاشيل فلوس تاني. هيا الدنيا مالها ماسكه فيا وجيالي من كل ناحيه ليه؟

بس التليفون ده. ".

صرخت أمل

" آخده"

صمتوا جميعا. فقال ميكا مشجعا

" اشحنيه وانا بكره أجيبلك لك رصيد".

obeikan.com

ثم حسم ميكا الأمر كأنه يحكم بينهم

" عالجي أخويا وشيلي الباقي للي ف بطنك ولأمل يا بدريه "

عندما شُحن الهاتف طلبت أمل رقما بغير اتفاق فجاءها على الطرف الآخر صوت جاف.

ردد الصوت: ألو ألو. ارتبكت وأغلقت الهاتف. كان نفس الرجل الذي تعلقت عيناه بوجهها على صفحة كوبري السادس من أكتوبر. ثم اختفى للأبد.

طلب سوكه أن يحدث سلامه على انفراد.

" عايز ترامادول، أفيون "

" بلاش"

نظر إلى أخيه وقال

" الظاهر إنه ورث. زي الشقا والفقر"

" بعد كده مش هتعرف تستغنى عنه "

" مفيش بعد كده. هما ست شهور بالكتير. الدكتور قال كده. سرطان في الكبد وتليف في الطحال. ومش عارف بيقولك المريئ دوالي ايه. أنا تعبان قوي يا اخويا. عايز بس الوجع يقل"

أراد أن يمنحه الأمل. وسرى في عينيه طيف فجأة ودموع.

" عارف نجيه كانت دايما بتقول إيه عنك؟ سوكه دا الوحيد فيكم اللي أبوه

obeikan.com

كان محترم"

ضحكا ضحكا أخويا عذبا ثم قال سوكه

" الحمد لله"

" على إيه؟ "

بتقول إيه؟ "

" لا. ولا حاجه. هو انت بتشوفه فين؟ "

" هو مين "

" ربنا"

" طول عمري شايفه. باحس بيه اكتر في المطر. ساكن فيه، يملاك وتشوفه وتحسه، بس متقدرش تمسكه. أما ف منطقتي دي وفي الوقت دا شايفه أكتر، عارف يا سلامه لو انت في بحر والدنيا ضلمه والموج حواليك واتقطعت أسبابك بأي حد.هتقول يا مين؟ مفيش غيره"

أنصت إليه بوجه جامد

" وهو هينقذك؟ "

" مين اللي قالك إن الموت مش انقاذ "

"وعيالك؟"

obeikan.com

" يا سلام. هو اللي معاهم أبوهم بس هما اللي كويسين؟ ربنا قادر يسبب لهم أسباب أحسن مني. "

سعل حموده الأفيونجي فمنح سلامه الجواب.

*****

لم يعد حموده الأفيونجي يدرك مما حوله شيئا. أصابه العمى والصمم. غارت رقبته بين كتفيه واسودت يداه وجفت فيه كل منابع الحياة. راقد لا يتحرك من محله على الأرض بجوار "الكبنيه" .اختاروا له هذا المقام ليكون قريبا من الحمام لكنه لم يعد يستطيع الوصول إليه. حتى هذه المسافة صارت شاسعة مستحيلة ولولا أن أرسل الله بدرية لظل مكانه يبول ويغوط حتى يفنى. رغم ثقل الحمل وقرب المخاض رحمته. تنتابه حالات صراخ ضج منها الجميع وأصبح يأكل بنهم غريب ويكاد لا يشبع، يضع الطعام في بئر لايمتلئ. تناوب كل سكان الحارة على مده بالطعام. يأكل ثم ياكل حتى يغفو ثم يقوم صارخا. ذكر الحارة بالعواء القديم وكهرمان وكهرمانه ثم ظل ينازع الموت أسبوعا كاملا. انفصل عن العالم تماما ولم يدر أحد ماذا يحدث له في واقعه الجديد، يخور كالثور ويتحدث كالأخرس ولا يفهم أحد ما يقول. يتعامل مع عالم يراه وحده ويسمعه وحده يمسح وجهه ويهمهم محركا يديه في الهواء. حاول سوكه كثيرا أن يقترب منه ويلقنه الشهادة أو يسقيه لكنه كان يشير بيديه إلى أعلى متحدثا لمن يراهم وحده بلغة غير مفهومة. لم يكن ذلك في عين الناس سوى هذيان لكن كان واضحا أنه يعاين شيئا ما وبلغة تبدو كاملة الأركان لكن لا يفهمها أحد.لا شأن

لها بدعاء سوكه وتلقيناته التي تذهب أدراج الرياح ثم أخذ يهز رقبته وقدميه ويديه اليوم الأخير كله ثم تشنج ورفس ساعة كاملة ثم أرغى فمه وأزبد سائلا أخضر ثم سكن إلى الأبد.مات بعد موت نجية بسبعة أشهر في نفس عمرها حين ماتت الثامنة والستين.

وولدت بدرية في نفس اليوم طفلة رائعة الجمال. في الأول من يناير عام ٢٠١١

obeikan.com

وجه

" حتام أنت في زي محرم. وإلى متى في شقوة وإلى كمِ" [1]١

قرر الأستاذ عاكف أن يمنحه المزيد من المسئوليات والعطايا. لا بدَّ من تطويق عنقه. ومزيد من التوقيعات أيضا. سيحكم عقد الحبل على رقبته ليستعمله كما يشاء أو يخنقه حينما يشاء. لم ينس للحظة نظرته الأخيرة والفحم يشوي لحمه..لو لم يصادفها بحكمة لاخترقت هذه الكف قلبه.

أكثر ما راق سلامة كثرة الإنشغال أما أروع ما أسند إليه من أعمال فكان العمل لدى محسن عزيز، السياسي الكبير الذي اتصلت صلاته بالأستاذ عن طريق الحزب واوكل له تخليص وقف في دائرته؟ كان للاسم وقع صادم وشجي وباك وصادم. تلك هي العلامة الأولى لبدء النهايه. رسم الحد القاطع الفاصل بين الرتابة التي يعيشها والهدف الذي يضمره.

سأله الأستاذ: "مالك"

" لا مفيش. بس الدنيا صغيره قوي"

"تعرفه؟"

"لا. وانا هعرف الناس الكبارات دي ازاي. انا معارفي قبل حضرتك عربجيه وسباكين"

---

(١) أحمد شوقي

opelkan.com

" المهم خد الورق دا وصله للباشا وإياك تطول معاه ف الكلام. الناس دي مش زينا، انت هتبقى الراجل بتاعه في الدايره بتاعتنا. عنده كام حتة أرض على كام بيت عايز يخلصهم، وانت طبعا ابن الدايره وفاهم"

"لم ترق له الجملة الأخيرة لكنه لم يشأ التوقف عندها

تمام. تمام يا باشا "

خرج من عنده يملؤه اليقين أن الله حكيم فعلا ومكير. هو الذي أوعز لقابيل بقتل هابيل بأن وضعهما معا في طريقين متضادين.

*****

تراءت له الفيلا على البعد صرحا شامخا. أوقفه الأمن قبل الوصول إليها بمسافة تفوق الخيال. فتشوه تفتيشا ذاتيا محكما. ضباط وأمناء في زي رسمي وآخرين في زي مدني. تذكر كمائن المرور.

حذره المفتش الأخير أن يمس شيئا مما يقابل حوله. تذكر الحكاية القديمة التي حذر فيها الساحر علاء الدين أن يمس شيئا من جواهر المغارة حتى لا تغلق الصخرة بابها عليه فيضيع إلى الأبد في الكهف المسحور. كان على علاء الدين أن يحرص على نيل المصباح فقط، المصباح فقط.

مر من البوابة الحديدية الضخمة في طريق اصطفت فيه عتبات رخامٌ فوق نجيل أخضر ندي بُنيت خصيصا ليطمئن صاحب القصر ألا يطأ زائره النجيل. على يساره أقفاص حديدية بداخلها كلاب شرسة وخيول أنيقة القوام، تبدو الرعاية

الواضحة على نظافة الحيوانات، أمام بعضها طعام فرغت من بعضه وأسأمها الشبع بعضه الآخر. وعلى يساره سور تستقر تحته العديد من التماثيل المزخرفة بدقه، وفي وسط الطريق ازدانت مسله فرعونيه طويله حولها سياج من البازلت والجرانيت. ها هنا يعيش إذن. قضى ليلة كاملة يقتلها ويمزقها. بأي وجه سوف ألقاه في اللحظة الأولى؟ هل لا بدَّ أن ألقي التحية حتى يأتمن أم أطعنه في الوهلة الأولى؟ أي الوجوه سأرتدي؟ أأمد يدي إذا مد يده مصافحا. هل أبتسم وهو يشد على يدي؟

في ذلك الممر الطويل المؤدي إلى الباب لم يكن يصبو لشيئ إلا أن يحتفظ بشحنة الغضب. ثبتت خطاه على وتيرة واحده. على بعد خطوات خلف هذا الباب تستطيع أن تغتسل من الدنس القديم والجديد.قاتلان على جثة واحده. بريئة لم تكن تملك إلا أن تطيع قاتليها. بدءا من عوف الليبي.

وصل إلى الباب، ضخم ومصمت. لابد أن يكون بهذه الصرامة ذلك الباب الذي يفصل بين الحياة والموت..بين كل ما سبق وكل ما هو آت. فتح له رجل ضخم الهيئة متين العضلات. طلب منه الجلوس في مدخل الفيلا حتى يقابله الباشا.

تأمل المكان. بناء فخم أشعره بالصغار. كثير من التفاصيل والتماثيل والتحف. مؤكد هو يعشق الإقتناء، وإلا لما قتلها، دقة تحركهم تثبت أن لمس قطعة من مقتنياته تعني الانتحار. الموت في الكهف. بشر كثير يتحركون في قصر الباشا. كلهم في مدار رضاه. كلهم أذلة يتصاغرون، يمر أحدهم بفنجان قهوة فيستوقفه الآخر ليتأكد من نظافة الفنجان والصينيه. أجبر نفسه على الدخول في ذاته

مرة أخرى فما وصل هنا ليتأمل المكان وصغار البشر الدائم أمام الأقوياء. المدرس الثوري كان أول من باع القضيه. انتم ناس كُمَل. أيمكن في وجود كل هؤلاء أن يقبض على عنقه بيديه.

عاد العملاق الصارم الذي فتح الباب وقاده إلى مدخل آخر يؤدي إلى مكتب الباشا. خطوات طويلة في بهو فخم، فتح له الباب فرآه أمامه.

سرت في جسده قشعريرة. قصير مدكوك عريض الفكين، فاحم الشعر يكاد لا يبين خلف مكتبه الضخم، في ملامحه خبث قديم وتوتر وتعال، يرتدي نظارة عريضة سوداء الإطار.

كان يتحدث في هاتفه المحمول، يطوي جانب شفته العليا ليقرض طرف شاربه بأسنانه وهو يستمع ويحك ذقنه بباطن كفه ويحرك يده الخالية كمن يشق الهواء وهو يتكلم. تحتقر عيناه كل من حوله. من الواضح أنه يعاملهم كلهم كالحشرات. لا بدَّ أنك ذللتها كثيرا أيها الوغد.كيف مرت عليها تلك اللحظات القاسية والدماء تتفجر ولا مغيث. أتراها تضرعت أم بصقت في وجهك؟

" جاب الورق؟ "

وجد نفسه صغيرا فجأة. لم يكن يحدثه هو بل يحدث العملاق بجواره. نظر له العملاق فقال

" موجود يا فندم"

مد له العملاق يده فتناول الأوراق ثم سلمها لسيده فأشار لهما أن يذهبا.

انتهى كل شيئ. احترق شيئ بداخله. أحس أنه أقل من ذرة تراب "موجود يا فندم" هكذا إذًا.

أقعيت ذنبك في الوهلة الأولى ثم عدت من حيث أتيت.

عاد من نفس الطريق. الدنيا ونفسه خلاء. أطبق بيده على رأسه ووجهه. لم يرني الكلب. لم يحدثني. لو عرض له صرصور لانتبه. أما أنا فلست سوى. موجود يافندم.

عاد إلى الأستاذ عاكف وحكى له شكل اللقاء

" شكله مشافنيش أصلا"

" شافك وعارفك"

" أمال ليه الإهمال ده "

" مش إهمال ولا اهتمام. الناس دي مبتفكرش كده. هو بيحدد شكل المعامله".

ثلاثة لقاءات متتالية يذهب بأوراق ويعود.يحدثه من خلال شخص آخر. في إحدى المرات تأكد أن عينيهما تلاقتا لكنه لم يعتبر وجوده. كأنه يمر بنملية بيتهم القديم أو طست الغسيل. تركه في المرة الأخيرة منتظرا لساعة كاملة. ثم سلمه العملاق أوراقا وطلب منه بصيغة آمرة أن يسلمها للأستاذ عاكف.

قال الأستاذ عاكف

obeikan.com

" العملية دي لو عملتها هتبقى حاجه تانيه خالص، انت اتفتحت لك طاقة القدر"

" عملية إيه؟ "

" إخلاء برضه"

"سكن؟"

" لأ. وقف".

استخلص السيد محسن عزت عددا من الأوقاف والتكايا من وزارة الأوقاف ولم يبق إلا التخلص من قاطنيها لأنها ستدخل بعد قليل ضمن مشروع حكومي أثري كبير وعالمي، ضمن هذه الأوقاف وقف في دائرة عاكف، الوقف الذي يحتوي مقهى الكاشف ومحل الفيديو والتكيه.

" هتحاول تعرض عليهم يمشوا بالذوق. وهتراضيهم لكن بقى لو مرضيوش. لازم تتصرف، امضي"

" هحاول وهراضيهم. هتصرف. هو سعادتك مش هتبقى معايا ولا إيه؟

" لا لا لا. المره دي انا بره الصوره خالص. دول أهل الدايره"

" ايوه لكن. ".

غضبت نبرة الأستاذ كمال

" لكن إيه؟ "

obeikan.com

ارتج للحظة، شعر باستحالة الاقتراب من ذلك الوقف ورغم ذلك وقع حيث أشار الأستاذ.

" بس يا باشا أنا أعرف أن الوقف دا ممنوع يتهد أو يتبني"

" ليه"

" مش دا القانون يا بيه؟

" احنا اللي عملناه واحنا بنفصله "

" ايوه يعني. مش دا أثار. دا السياح بييجوا يتصوروا عند السبيل"

قام من مجلسه منهيا الحوار

" انت بقيت رغاي ليه. الناس دي يا بابا لو حبيت تِخلي الهرم بكره الصبح تخليه. اسمع. انا عايزك تنجز الموضوع دا ف أسرع وقت"

لماذا لم تقاوم؟ لماذا لم ترفض؟ لماذا تقرر آلاف القرارات ثم تضيع جميعا عند أول اختبار؟

كيف ستضع عينيك في عيني سوكه؟ أيتها الكلاب الغاضبة انبحي بداخلي مرة خارج الدنس لأصطف في صف الأخيار. إبراهيم الكاشف. السرير الذي نمت عليه صغيرا كان من فضلة خيره. أبوك الذي طردته كل الأماكن هو الذي استوعبه. .علاج أخيك.. المقهى.. أشرف. إلام وصلت أيها الكلب العقور؟ يا ابن الدايره.

obeikan.com

في الزيارة الخامسة شعر أن كل هذا الأمن المحيط بالفيلا لصالحه هو. أسعده وجودهم وكثافتهم وتعملقهم هؤلاء سيضمنون نهاية مزدوجه لابد أنهم قاتلوه بعد أن يقتله. ما أروع أن يفرغ هذا العالم من كلبين في ليلة واحده. لا بدَّ أن النهار التالي سيكون أنقى.

تخففت حدة التفتيش وصار وجهه مألوفا لكنه ما زال لا ينظر إليه. لعله ما زال يخشى أن يراها على صفحة وجهه. ولكن إلام تلقاه ثم تلقاه ثم تلقاه ثم تلقاه؟ حتى يتسرب الخنوع إلى دمك. تماما كما صرت تتلقى بيض الليبي حتى اعتاد يديك.

كالعاده، ترك الأوراق للباشا وخرج. يدرك تماما أنه يراه. لماذا يسمح له بالدخول إلى مكتبه مادام مصرا على الادعاء أنه لا يراه ولا يكلمه؟ تعود الأمر قليلا. لعل هذا أفضل من أن يرى الحقد والسواد الذي يمتلأ به قلبه تجاهه.

ومن شرفة بالطابق الأعلى للفيلا الشاهقة كان وجهٌ يتابعه للمرة الخامسة بتطلع مثير ويتساءل في صمت. إلام الصبر ومتى ستضرب ضربتك وتنهش أيها الذئب البري القديم؟

وكانت قطرات من ماء المطر تترى منذرة بهطول شديد.

*****

الوقف

الليلة ليلة الحسم. معركة دائرة منذ خلق الله هذا الشارع على هذه الأرض بين البطش والسلطان والنفوذ وبين أحجار السبيل الكبيرة المربعة العتيقة وأبوابها المبنية من آلاف السنين.

جمع رجاله، عوض العربجي وروشه السباك والبلطجية الثلاثه، وتوجه يقدم قدما ويسحب أخرى نحو المقهى. جمعهم يبعث الرعب في كل القلوب. كان الليل قد أرخى سدوله والكل منتظر نهاية هذا الحوار الذي بدأ منذ يومين بين سلامه وإبراهيم الكاشف.

طرده المعلم إبراهيم الليلة الماضية على مرأى ومسمع كل العيون واختار بذلك الطريق الصعب.

" الكلب ابن الكلب جي يطردني من قهوتي".

أطفأ سيجارته وقام بغير أن يرد وجلس المعلم إبراهيم يحاول جمع أنفاسه " المكروشة" التي كادت تطاير معها روحه. اسمعه المعلم الكاشف باقي كلامه قبل أن يمضي

" طلعوا أرواحنا يا كفره قبل ما تقلعوا الاحجار".

لكنه اليوم عاد، لا ليتحاور أو يقدم عرضا بل ليهدمها فوق أصحابها.

تراءت له وهو في الطريق جولات أبيه بين الطاولات وصوته القديم وهو يصرخ "

وعندك اتنين شاي وحجرين معسل" " خد فلووووس" ومذاق كوب سحلب دافيء بالبندق كان المعلم الكاشف يصر عليه على أن يشربه في الشتاء فيتناوله على مهل متمنيا ألا ينتهي وهو يرقب أعاجيب الخط العربي ولون آيات القرآن بريش الخطاطين. كانت هذه الخطوط السوداء المتحررة تمنحه صورة موقرة للرب أكثر من ضريح الفلواتي وخطب الجمع وسيرة الحياة. وكان يشعر أن هذا الكلام الذي يخطونه عظيم وكبير رغم أنه لم يقرأ حرفا. وتراءت له صورة الأحجار الكبيرة وتخيل استحالة هدمها وغامت في عينيه صورة عوف الليبي متداخلة مع وجه محسن عزت وكلاهما يستبيح شيئا لا يمكن أن يخصه بأي شكل. يمتهنه بكل حقارة. كلاهما امتداد للآخر. لعله هو هو في صورة صاحب سُلطه. هذا اغتبط بها ثم قتلها حيه وهذا سدد لها الطعنة الأخيره. الخال لا يُراقب وصاحب المال والتفوذ لا يُرد له طلب.

على البعد رأى المقهي خاليا تماما. ساكنا يشع منه النور، واثقا من جلال موقعه. الكراسي مرصوصة لكنها القهوة خلاء ودائرة صغيرة متحلقة حول شبح جالس أخذت تتضح كلما اقترب.

إنه هو. بوهنه وقدرته العجيبة على بعث الرهبة رغم اختفاء قوته. سر المقهى وروحها. كان سوكه جالسا متكئا على عصاه يملؤه الوهن والشرف وحوله المعلم إبراهيم وأشرف فقط. توقف حين اتضحت معالمهم وأوقف رجاله. لم تستطع قدماه أن تخطو خطوة أكثر. حرن كفيل أبرهه.

*****

زمجر الأستاذ عاكف عبيد كالأسد الجريح

" لا وحياة أمك. متجيش مع الناس دي وتصغرني"

خرج من أمامه والحيرة تملؤه، لا يدري ماذا يحدث حوله أو بداخله.

تحين عوض العربجي يمثل هذه الفرصة من زمان ليكون رجل الأستاذ

" سلامه ايده مرعوشه يا باشا. خايف على أخوه"

هذا كلب آخر يهز ذيله

"تقدر؟"

" لوحدي لأ. بس لو انت معايا. أفوت في الحديد".

" سبني دلوقتي".

كان يريد مساحة ليفكر. لم يكن أسلوبه قط متسرعا. بل شديد الصبر على ضحاياه حتى يغشاهم السم فيسقطوا. لماذا لم يطو سلامة تحت إبطه رغم كل هذه العطايا وهذا الزمن وهذا الأصل الخسيس والطبع الحيواني؟ ما الذي يجعله عصيا على الإنصياع؟ أليس هذا ابن نجية والأفيونجي. كلاب السكك؟ هو الذي لهث ليحظى بخدمة محسن عزت وهو الحريص دائما على الوصول إليه. لست بالعيي الغشوم حتى أصدق خشيته على أخيه. هذا الكلب لا يخشى شيئا في هذه الحياة. عوض العربجي لا يستطيع أن يسوق غير الحمار، بل الحمار أسرع في اعتياد الطرق أما هو فينهق لو رأى إتان. وإتانه رُزم الفلوس. لا ليس هذا. بل سلامه ولا أحد غيره. عصيانه هذا لا يعني أن أخسره. استطيع بشيك واحد مما

obeikan.com

وقع عليه أن أخفيه إلى الأبد.لكن ليس الآن. ما زالت هناك استخدامات كثيرة. ليس قبل أن يرضخ. طوع يدي.

أخرجه من أفكاره طرق على الباب. أخبره عوض العربجي أن المعلم إبراهيم الكاشف بالباب فعدل في هيئته وأعاد ترتيب نفسه وأذن له بالدخول.

لجأ إليه المعلم كحبل نجاة قبل أن يقع الصدام وكان معه أشرف. أبدى الأستاذ اندهاشا شديدا اندهش مما فعله سلامه وعاب عليه أنه لم يعمل بالأصول والمعمول به من عُرف في محاورة الكبار لكنه ختم خطبة دهشته بقوله

" لكن مكدبش عليك يا معلم. سلامه مش لوحده. وأنا مش هقدر أناطح الناس دول"

" لكن تقدر تشتري الراجل بماية جنيه. ".

" اسمع بس يا معلم. المشكله أن أنا خايف ادافع عن القهوه. اتعاص"

جمع المعلم كل تقاطيع وجهه في منطقة وسطى من وجهه وقال غاضبا

" انت بتقول ايه يا حضرت؟ "

" ريحة الاجتماعات اللي بتتعمل ع القهوه بتاعة العيال اللي عايزه تنزل في يناير. والخطاطين والوقفات اللي عايزين ينظموها. انت مصلحتك تسيب القهوه النهارده قبل بكره. انت متعرفش ممكن يحصل لك ايه. انت قلبتها ماخور كانت الكلمة الأخيرة طعنة مخرت قلبه

" انا كبرت قوي على انك تخوفني يا سي عاكف. اللي زيكم بس هو اللي

obeikan.com

بيخاف. القهوه دي قهوة جدودي وجدود جدودي والكلاب اللي زيك رايحه وهيا اللي باقيه.

لطمه عاكف على وجهه فرد له المعلم لطمته في نفس اللحظة ودخل عوض العربجي منتظرا إشارة ليفتك بالمعلم إبراهيم. لكن أشرف عاجله بلكمة كومته على الأرض وكاد أن يضرب الأستاذ الذي اتجه خلف مكتبه في اللحظة اللي ضرب فيها عوض وسُمِعَ دوي طلقة رصاص.

لم يصدق أشرف أن الرصاصة اخترقت قلبه ولم يصدق الأستاذ عاكف أنه جرؤ على ذلك. لكنه ظل ثابتا، ولم يصدق المعلم إبراهيم الكاشف أن شخصا على وجه الأرض يمكن أن تبلغ به الوحشية أن يقتل مثل أشرف. بُهت ثلاثتهم وقام عوض العربجي يعدو نحو الباب ثم عاد بالسباك وباقي العصابه.

*****

في ذلك الزمان كان مثل هذا القتل مباح ولم يكن رجال القانون يحارون في صوغ المحاضر وكان أشرف أول قتيل رصاص في هذا الشارع الشهير بضريح سر الدين الفلواتي. وصيغت القضية على نحو مختلف وتساءل الناس ما الذي أرسل أشرف القهوجي إلى مكتب الأستاذ في هذا الوقت المضطرب وما تلك السكين التي صُورت بجوار جثته وأسئلة كثيرة أخرى كلها تدين الضحيه.

ومات أشرف سعيد النوبي، القهوجي الأعرج وأوضحت التحريات بعد ذلك أنه كان تاجرا للهيروين والمخدرات.

obeikan.com

منى

"أعيني جودا ولا تجمدا..ألا تبكيان لصخر الندى" [1]١

هو احنا ليه مش بنروح مستشفيات ونتعالج زي بقية خلق الله"

سألت أمل ببراءة فأجابتها بدريه

"والنبي يا حبيبتي مانا عارفه. قضا ربنا"

"طب هو احنا الحكومه عارفه اننا عايشين"

"أه. أمال بتحبس اخواتك ازاي"

ضحكا ولم تستطع بدريه أن تحتمل ضحكتها من ألم الوضع. تناولت طفلتها وأسندتها إلى صدرها لترضعها ودخل سوكه ليراها لأول مره..نظرته بين الدموع والامتنان، متهلل الوجه في هدوء يخفي تحته زمرا وطبلا.. سامح الحياة وتقبل كل ما لاقاه..لمع ضوء الشمس القادم من شباك حجرة المستشفى أمامه وأرسل شعاع أمل على المكان كله.. لاقته عينا بدرية بحب وابتسام.

" استنى يا حبيبي هرضعها وأديهالك"

" لا أنا عايز أشوفها كده وهيا على إيدك"

"هتسميها أيه بقى؟ اوعى والنبي تقول لي نجيه"

(١)

obeikan.com

" هاسميها منى. ايه رأيك؟ "

" أحلى اسم"

ظل مسددا نظره إليها في حنان من بعيد .دخل الطبيب وقال موجها حديثه لسوكه

" ادخل احضنها. متخافش"

ألقى نفسه في حضنيهما حتى شبع.

مات مطمئنا وراضيا وسعيدا. دخل في غيبوبة كبدية لمدة أسبوع ثم قضى وعلى شفتيه ابتسامة. بكته الحارة كما لم تبك أحدا من قبل وأشرف على كل مراحل الغسل والتكفين والدفن الشيخ إيهاب وصحبة المسجد وبكاه المقدس جرجس كما لم يبك ابنه صمويل. ووجد سلامة نفسه يبكي في المسجد في صلاة الجنازة ويدعو الله دعاء حارا أن يرحمه. لا يمكن لمثل هذا أن يموت وكفى. لا بدَّ أن هناك جائزة تحجب عن مثله هو بينما ينالها مثل سوكه.

أصر إبراهيم الكاشف رغم كبر سنه أن يساعدهم في الغُسل وصب الماء وتوضئته قبل تكفينه وحمل النعش وبكاه كالأطفال. وظل واقفا في السرادق على قدميه يتلقى العزاء كأنه ابنه. فقد في أسبوع واحد أشرف وسوكه. هو الذي تم هدمه من الداخل ولم تبق إلا الأحجار.

وحضر الحج عبده وابناه رضوان وعاطف وعزوهم في حرارة وظهروا للمرة الأولى منذ "الخناقه"

لم يجرؤ الأستاذ عاكف على الحضور. كان أهل الحي يتبادلون التعازي كأنه فقيدهم هم. وانـزوى سلامه في ركن قصي هامد الجسد شاخص العينين وحوله رجاله على رأسهم عوض وروشه.يكره مجرد وجودهم في العزاء. ليس لأمثال هؤلاء ولا لأمثالي أن يتواجدوا في عزاء ميت مثل سوكه.

وقفت بدرية في ثوبها وغطاء رأسها الأبيضين مطمئنة شاكرة أن منحها الله مثله ولو لأمد قصير. ماذا كانت الحياة لو لم يمر بها وماذا كان يمكن لها أن يكون لو لم يرزقها الله منه منى؟

*****

أصبح الموقف مختلفا تماما حين انتهى كل شيئ ومضى المعزون وانطوت على حزنها الكبير لما رأت هذا الفراغ يملأ الكون. كان حضنه الصغير أوسع مساحة للحنان والبراح وضاقت بعده الدنيا بما رحبت وشاقها أن الحياة تمضي وأنها تأكل وترضع ابنتها وتستمر أحداث الحياة.

" أيها العالم انتبه فقد راح سوكه".

لم يخل الأمر أيضا من حرج المبيت في الشقة في الليلة الأولى. مضى الجميع ولم يبق إلا سلامة وأمل وطفلتها منى. ذهب ميكا لشقته البعيدة في السادس من أكتوبر دون أن يعرض عليه الذهاب معه. كان مشمئزا منه منذ عرف قصة إخلاء المقهى.

خرج سلامة هائما على وجهه بلا وجهه حتى أعادته أقدامه للمبيت في ضريح

obeikan.com

الفلواتي.

عاد في الصباح متحرجا من الدخول

" هدخل آخد حبة حاجات"

" اتفضل يا خويا دابيتك"

امتدت يداه لبعض قطع متناثرة من الملابس ووجد عينيه تهمي وهو يتذكر سوكه ومنى ويشعر بصوتهما يملأ المكان. خلافاتهم الصغيرة وصراعهم على الطعام ولعبهم تحت المطر. تذكر العصفور الذي حاول أن يقتله واليوم الذي زاره فيه سوكه في الإصلاحية بسندوتشات طعمية كانت أقصى ما استطاع وأشهى ما ذاق منذ خُلق. زاده صوت ماء المطر شجى فأطلق لعينيه العنان وأجهش بالبكاء.

سألها فجأة

"هو سوكه كان زعلان مني؟ "

" سوكه كان عارف إن جواك خير. بس انت مش عارف توصل له".

ساد صمت حزين ثم استأنفت

" هو انت ممكن تزعله في تربته يا سلامه؟ القهوه دي مش مجرد قهوه يا سلامه. بلاش عشان خاطر سوكه"

" متخافيش. ولو حصل وقابلته هقوله. أن العيله والقهوه بخير".

جمع متعلقاته وذهب للمبيت في ضريح الفلواتي.

obeikan.com

اجتمعوا نهار اليوم التالي لتحديد مسار الحياة. بدت على وجهها كآبة اختصرت كل أحزان العمر. كان واضحا أنها ظلت تبكي طوال الليل وأنها الآن تتدعي التماسك.

عرض ميكا أن يأخذها والطفلتين ليعيشوا معه. عرض عليها سكنا وعملا معه لكنها تضمر عهدا عاهدته لزوجها ألا تأكل من مال ميكا. قرر سلامة أن يتركوا البيت لها مع ما ادخرت نجيه لكنها أيضا تعف عن مال نجية. قالت إنها ستتركه كاملا لأمل. أراد ميكا أن يتكفل بأمل لكنه لا يستطيع أن يتكفل بها حياتيا وإن استطاع أن يكفلها ماديا. سألوها أن تختار ما تشاء فاختارت الطريق الأصعب. أن تستمر في عملها.

" الظروف اختلفت ومعادش ينفع تمرمطي نفسك"

" مفيش أجمل من الشقا ع العيال يا ميكا"

أوقفته هذه الكلمة الأخيره وأوقفت العالم من حوله. لم يبك منذ موت سوكه ولا يذكر إلا لحظات بكاء قليلة في حياته. لكنه الآن يشعر باندفاع بكاء شديد.وضع كفه فوق وجهه وشعر بهطول أمطار تحتوي سر السماء.

طيبت بدرية خاطره ثم قالت

" عارف يا ميكا أنا نفسي ف إيه"

" اؤمري"

obeikan.com

" تاخدني بعربيتك يا ميكا لمكان بعيد.مش عارفه فين بالظبط. بس حته خلا. عايزه اعمل زيك كده نفس أعيط وأصرخ براحتي"

حقق لها ما أرادت ثم عاد بها صامتة ومنهزمه. عقدت العزم أن تتولى رعاية أمل ومنى ليكونا شيئا آخر وألا تجبر أمل أبدا على مواجهة الحياة وحدها.

*****

نشأ صراع هادئ حول تجديد الشقه، رفضت بدريه فكرة التجديد أساسا لسببين، ثانيهما المعلن رفضها أن تتزين الحياة كأن شيئا لم يكن وأولهما المضمر تعففها عن أموال سلامه وميكا. وتحمس سلامه للفكره لسببين أيضا؛ ثانيهما المعلن فعل أي شيئ لابنتي منى وسوكه قبل أن يحين موته هو أيضا. كان يشعر بدنو الحسم وارتسم الهدف تماما في ذهنه، لم يهتد إلى طريقة تنفيذه بعد لكنه ترك الوقت والصيغة للقدر الذي وضعهم جميعا في خلاط واحد، سبب أول المضمر هو تأجيل الصدام ما استطاع بينه وبين الأستاذ عاكف من جهه وهربا من مواجهة المعلم إبراهيم الكاشف مرة أخرى حتى يهتدي للطريق والطريقه.

يعلم أنه سوف يهجرالحارة نهائيا بعد قليل، خمسة وثلاثين عاما أو يزيد يعيش فيها كالجمل الأجرب يشعر أن تراب الأرض فيها يكرهه، كل سكانها يكرهونه. لم يغفر له شخص واحد جرأته على الوقف والتكيه عطفا على جرائمه القديمة كلها وبطشه بالكبير وبالصغير. منذ مد يديه على عم عبده أصبحت كراهيته فرضا كصلواتهم في المساجد.نظرة الست رقيه. عصابته التي لم تعد فقط

obeikan.com

مكونة من عوض العربجي وروشه السباك بل انضم إليها كل من أراد أن يكون مجرما. عرف الفرق يوم عزاء سوكه. أتراه إن مات سيقفون نفس هذه الوقفه أم يلعنوه جميعا. وفي أعماق نفسه لم يختف عنه الجرم القديم أبدا. أرسلها للعالم الآخر مدنسة. وبقي هو وحده يجتر آلامه باقي عمره. أتراهم يقرءون عليه قرآنا أم يرجمون جثته.

وعلل ميكا رغبته في التجديد بكلمة واحده

" عايزين العيال تعيش زي البني آدمين. خليهم يطلعوا بني آدمين".

أفتاها الشيخ إيهاب أنه لا يحق لها أن تعترض على ذلك فهي في الأساس شقتهم.

أشرف سلامه على تجديد الشقة ودهن حوائطها وتغيير الحمام وأثاث البيت.

أحبت أمل الحمام الجديد كما لم تحب شيئا آخر.

أشترى ميكا ثلاجة وبوتجاز وكل ما يلزم بيتا حديثا من أدوات كهربائية وحقق وعدا قديما لأمل. اعتبره هو نفسه شيئا غريبا، بيتا جديدا يحتوي عائلة جديده. بدريه وأمل ومنى يشرف عليهم على البعد سلامه وميكا. والتحقت أمل، رغم أنها مازالت في منتصف العام الأخير من المرحلة الإعدادية، بشركة الكمبيوتر التي يمتلكها ميكا ولا يدري شيئا عن إدارتها ولا استعمال الكمبيوتر من الأساس لكنه كما علل لها:

" مشغل فيها عيال ولاد ناس. بني آدمين"

الضريح

قالوا التعالب زئيرك زلزله وتزول

هَبَّه، لكن بعد حبه تتردف بخمول

إن غبت يجروا سوابق ف انتهاك الحق

وان سمعوا صوتك يزلزل يجروا جوا الشق

بطل زئيرك يا أسد..

وافعل بدون ما تقول[1]

عيش، حريه، عداله إجتماعيه.

لعل رغبة ميكا لم تكن رغبته وحده.

لعل كل واحد منهم عانى نفس الضياع ولكن بطرق مختلفه ولعل تلك العائلة لم تكن هي الوحيدة في هذه الأوطان وفي هذا الوقت التي لا تدري مم صنع عذابها وكيف بلغ بها القبح آخر المدى. وبينما كانت عائلة الأفيونجي تعيش القبح وتمارس العذاب وتعيش بكل ما تمر به كأمر مسلم به كانت عائلات أخرى تمور ووتتلظى. كثيرون قرروا في ذلك الوقت أن يعيشوا كما يعيش الآدميون. بالآلاف خرجوا زحفا إلى كل الميادين متخطين حواجز يصعب على المرء تصورها

(١) فؤاد قاعود

obeikan.com

وعابرين كل الصعاب والقسوة والوحشية التي يمكن أن يتمسك بها نظام حكم وظلم وقهر وجرف الأرض والقلب والروح للوطن. بدأت في أرض الأبطال بالمحله واشتعلت غضبا في الأسكندريه والسويس واستقرت في التحرير لكنها استلهمت كل شيئ بداية من بعيد..من الخضراء تونس.

كلهم ماجوا يحملون رغبة ميكا وشعاره أن يعيشوا حياة آدميه. ولولا أن كان بينهم عشرات مثل عاكف لبلغوا ما أرادوا. الشاهد الأول ممن تقدموا الصفوف وهتف كاللهب كان المدرس الذي باع البيت في أول جلسه والشيخ الضرير ذو الثوب الأبيض الناصع باع تقواه بعشرة جنيهات.

جلس عم عبده على باب المحل الذي لم يكن يخرج إليه منذ هده الشيب. ولداه لم يعودا منذ أمس وانقطعت أخبارهما تماما. سأل جميع أصحابهما لكن معظمهم كان هناك، معهما في ميدان التحرير. العائد منهم إلى بيته يختفي. والبيانات تتوالى والاحتشاد يزيد.

أحدهم أبلغه أنهم رأوا رضوان ينشد الشعر أمام فوهات الدبابات هناك ويهتف محفزا الصفوف. وقف جسورا بلا درع يحميه ينشد قصيدة أمام سيارة تضخ المتظاهرين بالمياه. لو وقف أمامها جبل لهدمته وبمثلها حطم الجنود خط بارليف الحصين لكنها لم تزعزعه من مكانه. وآخرون قالوا إنه كان يمر بالطعام على الثوار وينظف أرض الميدان في نهاية اليوم ورآه آخرون في التلفاز يحمل الهلال والصليب ويهتف بهما معًا. ولما عاد أخوه عاطف في الليلة التالية ليبدل ملابسه ويأخذ لأخيه ملابس جديده أخبره أن رضوان هناك في الصفوف

يؤم المصلين.

كان كذلك وكل ذلك. حتى خرجت طلقة من مسدس رجل يجاوره فاخترقت جانب رئته اليمنى وخرجت من اليسرى فمات من لحظته. قتله رغم أنه كان يهتف بجواره مطالبا بالعيش والحريه والعدالة الاجتماعيه. آخر ما سمعه الناس من رضوان حين سقط

" هفضل أحبك مهما حصل".

انفطر قلب الأب حين سمع فانطلق إلى مشرحة زينهم ليتسلم جثة ابنه. فوجئ أن المكتوب في تقرير الطب الشرعي هو أن ابنه مات منتحرا فدفنه ثم لم يعد هو نفسه إلى البيت بل ذهب مسرعا إلى الميدان ليرابط هو أيضا بين الشباب في التحرير.

كان يوما شديد التكثف والبلاغة في حياة مصر. كانت تريد أن ترى النور في عين الرجال والنساء بعد ظلام طويل. مات الشباب كالورود يبتسمون في وجه الرصاص. ملئوا العالم ضجيجا كما قال " جيفارا" كي لاينام العالم بثقله على أجساد الفقراء والبائسين والمظلومين. قالوا قديما لو ثار أبو الهول لثار شعب مصر، من يدري لعله كان بينهم.

أحداث متلاحقة وعجيبة ورغم ما ملأها من اضطراب يتبين للناظر إلى الصورة من بعد زمني مناسب أنها ربما تبدو في غاية الترتيب والنظام. فتحت كل السجون في وقت واحد وهرب كل المساجين. تم اقتحام سجن المرج

Openkan.com

وسجن أبي زعبل بقوى خارجية، هاجمته حين ساد الهرج، أما بقية السجون فقد فوجئ المساجين أنفسهم بأن عليهم الهرب. ضُربوا بالرصاص ولم يكن أمامهم إلا الهروب. وقف بعضهم لساعة مترددا، أعليه أن يتبع النظام فيهرب أم يتبع الرغبة في انقضاء المدة فيبقى؟ لكن البقاء هو الموت. ضابط شريف برتبة لواء كان اسمه البطران في سجن القطه المشهور بعتاة المجرمين حاول الحفاظ على النظام. لم يكن في قلبه غير حب هذي الأرض والنظام الذي قضى عمره يعلمه ويتعمله. أُصيب بطلقة خبيثة، كتلك التي فقأت عيون الشباب، فأردته قتيلا.

حُرقت كل الأقسام في وقت واحد، نفس وقت فتح السجون، وسُرقت الأسلحة وهرب المساجين في وقت واحد وسار القتل مجانيا وعشوائيا واختفى الأمن تماما. اختلط الحابل بالنابل وخرجت كل الأحداث عن حدود المنطق إلى مدى غير قصير والذي كان حاميا ثبت أنه كان لصا والذي هرب من السجن صار رئيسا لكن الهروب نفسه لم يكن خطته هو.

في الحاره وفي كل الحواري سادت إشاعة واحده تصاحب الذعر والجري في كل اتجاه.

"جايين. هييجوا من هنا. هجموا على الحاره اللي جنبنا. سرقوا كارفور. سرقوا هايبر بيثبتوا الناس في الشوارع. قتلوا العيال".

من هم القادمون؟!

" المساجين الهاربون. يسطون على كل الأماكن ويقتلون الناس".

خطة ماكرة لإشاعة الفوضى تآمر فيها الجميع. الذين دبروها استخدموا كل أدواتهم والذي لم يعلمو ما فيها أظهروا أخس معادنهم وسرقوا ما طالت يدهم. وقطعت شركات الاتصال الشبكة عن منطقة التحرير، إكمالا لخطة تطويق الثوار، فلم يعد أب قادرا أن يطمئن على ابنه أو ابنته ولا زوجة على زوجها ولا أخ على أخيه وأُغلقت المداخل والمخارج على الميدان ومُنع دخول طعام أو دواء وكانت مقتلة عظيمة واشتد الكرب.

قال الرئيس في خطبته

" لست أخشى عليكم إن رحلت إلا الفوضى"

يهدد ويراهن ويداهن ويلوح بالاضطراب. ليس عجيبا أن يدمر كل شيئ ليبقى. لكنه لم يستطع والذي استطاع بعده بكل قذارة كان هناك في سوريا.

على أبواب الأقسام مات شاب كان يمر. فقط كان يمر. مات في عمر الزهور. وشاب دهسته سياره، وخرجت طفلة في الثالثة عشر من عمرها تطل من البلكونه ثم عادت أمام أبيها وأمها فزعة تجري.. بضع خطوات ثم سقطت أمامهما. سرى كالسر الخفي خيط من الدم من جبهتها. تلقت رصاصة في رأسها من قناص فماتت بعد تلك الخطوات.

*****

لم يكن هادئا متحكما في خطته في هذا اليوم سوى سلامه. يوم التاسع

obeikan.com

والعشرين من يناير.

هذا هو الوقت المناسب للخلاص. فليضرب اليوم ضربته وينتهي كل شيئ. لم يضع خطة الخلاص لكنه قرر أنه سيكون اليوم أو ربما وجد هذا في قلبه بطريق ما. لم ينم طوال ليلته في ضريح الفلواتي. لأول مره يغالطه النوم في هذا المكان. لا يدري هل غفل أم أن النوم غافله. ملأت أذنيه تراتيل غامضة وهمس غريب واشتم روائح عيدان بخور لم تكن بالأصل موجوده..ملأ المكان الضباب وهامت في عينه الرؤى. خضع أمام سطوته كهرمان وتقزم هيكله الضخم داخل الضريح، وغسلت قدميه كهرمانه.. تماما كما تخيلها في صباه؛ بيضاء نحيلة طويلة الشعر قاسية العيون وذات جناحين يبلغان السماء إذا انفردا ..طافت به أرواح قديسين وزناة وعصاة. رأى الدراويش يطوفون بالضريح ورأى الشيطان يتلصص عليه من خلف الضريح ثم يتخفى خشية أن تلتقي العيون ورأى على شباك الضريح ذلك الطائر الذي زارهم في الشقة .. عاتبته عيناه أنه كان يريد صيده..حمل في منقاره الشبشب الصغير وألقاه فإذا هو حطبة مشتعلة. والتقت عيناه بعيني منى وسمع نهنهة عوف الليبي في ليلته الأخيرة وأوشك الضريح أن ينفتح فيدخله أو يخرج منه سر الدين الفلواتي.

توجه نحو الفيلا. نزل من التاكسي في نفس المكان. لم يجد الأمن المكثف. كان المكان خلاء. كل فرد في هذا اليوم ذهب يطمئن على أهله. مشى الطريق الطويل المؤدي إلى الباب الكلاب جائعه متشرسه والجياد بائسه. فكر كيف سيفتح الباب ومن سيفتحه إذا كان محسن عزت بالداخل وحده. كان متأكدا أنه

بالداخل ومتأكدا حينها أن الرب رتب له كل شيئ.

عصفت الريح وامتلأ الجو بالأتربة وعلا الصياح في الميدان وماج كل شيئ في دوران لانهائي

في نفس هذه الأثناء كان ميكا عائدا من شركته بالسادس من أكتوبر بسيارته رباعية الدفع وبجواره أمل بطريق الواحات، ففوجي بقذف كارتونة بيض كاملة على سيارته.

لم تنجح مساحات العربية في حل الأزمة بل زادتها غياما وقذارة فاضطر للنزول من سيارته. هذا بالضبط ما أراده رماة البيض. المفترض أنهم كانوا خلفه بكثير لذلك سار بالسيارة مسافة طويلة تجنبا لأي كمين. علمته تجارته الحيطة لكنهم كانوا – بفضل خبرة اكتسبوها من سرقات سابقة – أحوط منه. كان المتربصون بأصحاب السيارات على بعد كيلو متر من قاذفي البيض.

هجموا عليه فأحس بهم قبل أن يصلوا إليه فتوجه مسرعا إلى سيارته وسحب "كلبش الدريكسيون" وعاد لمواجهتهم فوجدهم أمامه تماما. من السيارة رأت أمل الموقف كله، اندفاعه واندفاعهم ملأ قلبها بالرعب، فتحت الباب ووقفت بجانبه واضعة كفيها على خدها. أبدى بسالة وشجاعة في مواجهتهم لكنهم غلبوه بكثرتهم ودقة تحديدهم للهدف. طرحوه أرضا واستلوا مفاتحه وأخذوا السيارة وهربوا. لم يكن الطريق خال يومئذ من الناس. لكن يبدو أنه كان خاليا من النخوة حيث كانت كلها محتشدة في الميادين.

قال لأمل والضرب يوجعه

obeikan.com

"خدي تاكسي وروحي انتي على البيت"

" وانت هتعمل ايه"

" هروح الأول اعمل محضر وبعدين نشوف"

*****

وتماما في نفس اللحظة ضاعت عين عاطف. كان يهتف مع هتاف عم عبده. لم يرحم القناص الشيخ الكبير ولا ابنه الملائكي فأطلق من مكان خفي طلقة اخترقت إحدى عينيه فسقط بين يدي أبيه الطاعن. حملوه إلى المستشفى الميداني ورفض عم عبده أن يترك الصفوف وظل يهتف بكل قوة

" ارحل. ارحل"

خلفه تماما كان إبراهيم الكاشف وعم جرجس يشاركانه الهتاف.

*****

وقف سلامه لحظة أمام الباب يسأل نفسه ما جدوى دق الجرس وهو يعلم أن لا أحد سيفتح..لعلها حيرة الساحر التي ألجأته إلى علاء الدين.. وقف واثقا من قرب الحل كأنه يأمر الباب .

فتحه شخص بالداخل ،علاء الدين، انكشف الباب عن وجه جامد قديم، تأمل الوجه قليلا. هذا الوجه يعرفه. وتلك النظرة الثابتة التي تعرف ما تريد.رشا مرجان.

obeikan.com

قبل أن يسألها بادرته

" اتأخرت كتير"

" انتي بتعملي ايه هنا؟ "

" مراته"

بحث التفاصيل قد يستغرق وقتا. لم يأت هنا اليوم ليسأل عن قصص ائتلاف المتنافرين وتلاقي المتضادين. هذا تدبير محكم من قوى تتحكم فيهم جميعا. لم يأت هنا اليوم ليطرح أسئلة بل ليضع ختم النهاية على كل حياته. ربما كانت حكمة الرب أن يقابل في هذه اللحظة المكثفة كل من ظلمهم وكل من يجب بالتحديد لقاؤهم.

اشتد عصف الريح وكاد يدفعه للداخل. كان الوقت عصرا والسماء ملبدة تنذر بأمطار واعده. اختلط حماسه ببهجة المطر لكنه وأد في نفسه كل فكرة مبهجه.

*****

وصل ميكا قريبا جدا من القسم. لأول مره سيحرر محضرا وهو على حق. ليس اتهاما مفترى هذه المره. ولا جر شكل...

لكن ما أن واجه القسم حتى اقتنصته رصاصة محكمة في رأسه فسقط حيث كان. وظل ملقيا حيث سقط إلى اليوم التالي.

*****

obeikan.com

وصلت أمل إلى الحاره فوجدت أهل الحارة كلهم على بابها متأهبون بالعصي والأسلحة انتظارا للمجرمين وزودا عن أهاليهم. سألوها عن سلامه والعربجي وروشه. فقالت لا أعلم فقال أحدهم

" اللي هيقرب منهم م للحاره هنقطعه"

ظهر الأستاذ عاكف في اللحظة المناسبة يركب سيارته هربا للوصول إلى مكان آمن فاستنجدت به. ليس منهم ولكن من أجل ميكا.

قصت عليه ما حدث لميكا وهجوم المجرمين عليه.

كانت تماما كما كانت منى في عمرها. نفس الشكل ونفس الهيئة.

قال لها بخبث

" طب اركبي وانا هاتصرف"

لم يكن يستطيع أن يخمن إلى متى سيستمر هذا الهرج، ربما يحتاج لصحبة حتى تهدأ مصر. كان موقنا أنها ستهدأ كدأبها منذ آلاف الأعوام، لم يخلق في الزمان غاصب إلا استباحها. دعك من كل الأغاني أيها الوطن. ستهدأ الأمور وسيحبس سلامه وسيكون عما قريب رئيسا للمجلس. سيقضي الحكم على كل تلك السفاسف.

*****

فتحت رشا باب المكتب على الأستاذ محسن ليدخل سلامه. تماما كما فتحته

obeikan.com

منذ عشرين عاما لتدخل زوجة المدرس. صارا وجها لوجه. وخلف سلامه وقفت رشا.

" كان متهدل الملابس شديد الاضطراب يتصل بكل من يعرف. يرتدي قميصا مفتوح الصدر وبيديه سيجارة وتحت قدميه عشرات الأعقاب. أبدى لسلامة صداقة وترحيبا مبالغا فيهما..رآه الآن واعترف بوجوده وحاجته إليه...

" شفت يا سلامه؟ شفت؟ الأمن كله هرب. الكلاب. والصيع عايزين يسرقوا البلد.".

" قتلت منى ازاي؟ "

" منى؟!"

نظر إلى رشا يبحث عن صله تربط الأحداث. وجد كل شيئ في عينيها. سكن تماما. أخرج سلامه من جيبه مطواة واقترب منه في ثبات، استعطفته نظرة الآخر بغير أن ينطق أو يقاوم..لكن العطف والشفقة لم يكن لهما وجودا في هذا القلب في هذه اللحظة تجاه هذا المخلوق.. طعنه بكل قسوة وبشاعة طعنات متتاليات لا رحمة فيها ورشا تشاهد وقد ثبتت عيناها لا ترمشان.

انتهى الجزء الأول من خطته، لكن أين من يقتله هو نفسه؟

دق هاتفه المحمول وكانت بدريه على الطرف الآخر

" سلامه. عاكف خطف أمل".

obeikan.com

شرحت له ما حدث. قال لها الناس إنهم شاهدوها آخر مرة بصحبته.

سلمته رشا مفاتيح سيارتها فقال

" مبعرفش أسوق".

سألته

" انت عارف مكانه؟ "

مفيش غير مكان واحد ممكن يروحه دلوقتي. فيلا التجمع"

انطلقا معا. هي تقود وهو يحاول أن يسترشد الغيب فيما يلي من أحداث. ود أن تتاح له الفرصة ليشكرها. لكنه استوقف الكلمات في حلقه، كيف ينطق أحدهم كلمة شكر لشخص يعلم يقينا أنه يتمنى موته هو أيضا. يشعر منذ فتحت له الباب بوجه جامد أنها لا تفعل ما تفعل من أجله هو. بل انتقاما لصديقة عذبها فراقها كثيرا وتمنت أن تمنح روحها السلام. أما هو فهو يعرف منذ آخر لقاء أنه لم يكن في عينيها سوى كلب آخر.

في طريقهما صادفا رجالا ونساء وشبابا يسطون على المحلات والمعارض من كل الأطياف. كل منهم يخرج بما تستطيع أن تحمل يداه. تفادتهم ما استطاعت بسيارتها.

*****

كان الأستاذ عاكف قد أجلس أمل وهي شديدة التوتر.

obeikan.com

قدم لها قطعة شيكولاته. رفضتها بأدب

شعرت أنه رغم كل هذا " الهيلمان" تافه. ما لزوم الشيكولاته في هذا الوقت؟

الأوقات العصيبة لا يليق بها الرجل البارد، كرهته فجأة

قال لها مطمئنا

"خلاص أنا كلمت ناس هيجيبوا العربية لغاية باب البيت. وهنأدب اللي عملوا كده. انتي بس اهدي".

يا ربي. ما هذا البرود وطريقته البطيئة الناعمة في الكلام

"شكرا يا أستاذ عاكف ربنا يخليك".

كيف يمكن أن يكون المرء هكذا سمجا ثقيل النفس وأحدهم يحدثه في أمر هام؟ ألا يستطيع على الأقل أن يبدى اهتماما؟

جلس بجوارها على الكنبه ووضع يده على كتفيها وسأل

"ها وانتي بقى في سنه كام دلوقتي؟ "

هذا السؤال أساسا يقتلها. سؤال الكبار اللزج. يبدو أن هذا السمج العجوز لم يكن الشخص المناسب للجوء إليه. وما هذا الشارب الذي بدا تحت أرنبة أنفه المكورة كأرجل "أبو شبت"

تأففت من وضع يديه على كتفها. أحست بالقلق. ناولها كوب عصير وقال

obeikan.com

" انتي خايفه مني. دا أنا مش قد بابا. دانتي تقوليلي يا جدو. تعرفي أن ماما كانت بتقعد في نفس المكان ده. وكنت بالاعبها وهي ف سنك كده".

استبعدت تماما أن نجيه كانت تلعب يوما ما.

" ماما، نجيه؟ "

احست بخبث يديه فاستنفرت. تحدث بصوت ثعباني هامس

" لا لا لا. نجيه ايه. مامتك مش نجيه. انتي بنت منى".

لم تدر هل الذي أرعبها وأسقط قلبها هو صوت صدمة داخلها أم صوت كسر الباب بكتف سلامه القوي.

جرت نحوه أمل فسلمها لرشا وقال موجها حديثه للأستاذ

" أنا مش قلت لك ملكش دعوه بأمل"

توجه الأستاذ نحو مكتبه يريد أن يصل لمسدسه وأخرج سلامه المطواة من جيبه وهو يقول لرشا بغير أن ينظر إليها

" خدي أمل روحيها"

خرجت إشفاقا أن ترى أمل ما سيحدث.

طعنه كما طعن محسن عزت لكن عاكف كان أكثر تمسكا بالحياة فزحف حتى استطاع أن يصل لمسدسه. أسعده ذلك وترك له الفرصه، أطلق رصاصة في جانبه...

obeikan.com

هذه أول مرة يرى الأستاذ عاكف مطلوقا بالرصاص يبتسم.

أمسك سلامه بيديه التي تحمل المسدس والتذ بالنظر إلى عينيه المتضرعة وهو يسدد طعنة أخيره قاتله. فليمت الجبان وتبقى أحجار التكيه.

أتم مهمته لكن ما بال الموت بطئ الخطو. ملأته الرغبة أن يموت في الحاره.

*****

حل الظلام ولفحه هواء بارد.مشى بخطوات أثقلها الوهن وتاريخ من الذنب والخطيئة والضياع. تحنن عليه قلب سائق مار فأركبه سيارته. أدرك أن الله أرسله. غامت في عينيه الرؤى واختلطت البدايات بالنهايات وسقطت أمطار خلطت ماءها بالدماء على ثوبه وجسده، وتذكر سوكه. كلهم كانوا يلعبون تحت زخ المطر بينما كان هو يدور ويتأمل السماء يريد أن يعرف نقطة انطلاق المطر ومساره ومتى توقفه ويسأل هل يطير الحمام حين يفاجأه المطر أم بينه وبين المطر اتفاق.

أخرجه من ذكرى سوكه صياحهم، ما أن وصل الحارة حتى وجدهم في انتظاره.

قبله بقليل حاول عوض العربجي وروشة وباقي الرجال أن يسرقوا أحد المحلات فصرخ صاحب المحل فهجم أهل الحارة عليهم فضربوهم ثم ربطوهم معا وألقوهم على الأرض مقيدين ظهرا إلى ظهر. ولما وصل سلامه لم ينتظروا حتى يهجم على محل آخر

صرخ أحدهم " سلامه جي سلامه جي"

انهالوا عليه ضربا ولكما والدماء تسيل من جانبه. تطينت الأرض وأوحلتها الأمطار، تابع تدافع أحذيتهم تتابع على ساقه وبطنه. تلك ضربات الخلاص. لا بدَّ أن تلك القوى التي أرسلته إليهم أو أرسلتهم إليه تريد له موتا معذبا طويل الألم كما يليق بطاغية قديم. لن يمر من طريق الموت مبتسما كما مر سلامه. هل سيقرءون على قبره الفاتحه ويحتشدون في السرادق كما احتشدوا لسوكه أم يتركوه في العراء. ليتهم يفعلون الآن لتغسله مياه المطر. قاومهم بالقدر الذي يسمح له أن يدخل الحاره. هل سيموت الآن؟ طفت على وجهه ابتسامه ترحب بالخلاص شقت طريقها رغم الألم بصعوبه.

لم ينقذه سوى ظهور الشيخ إيهاب. أنقذه من بين أيديهم وأتاه بكوب ماء. كان معظمهم قد أنهكه الضرب كما كان أكثرهم يوقرون الشيخ.

قال سلامه للشيخ وهو لا يقوى على المشي

" انت كمان كان لازم أقابلك قبل ما أموت"

" أنا تحت أمرك. "

" مش عارف كنت عايز أشوفك وخلاص".

أراد الشيخ الشاب أن يسنده للدخول به إلى شقته فدفعه سلامه دفعا بسيطا.

" أنا عايز أروح المقام".

obeikan.com

" أنا لا أدخله".

" معلش وديني هناك".

ذهب به إلى ضريح سر الدين الفلواتي. حرا بالبيت ولم يدخله، نظر إلى الشق الصغير الذي خرج منه الطائر الصغير وتذكر صياحهم حوله ونظرة عين منى تستجديه أن يرحم الطير الصغير. أسنده الشيخ على الحائط فهبط ببطء مستندا بظهره إلى الحائط ووجهه جهة الضريح وهم الشيخ بالخروج ليجد مسعفا فناداه

" شيخ إيهاب. الدنيا ضلمه قوي. ادع لي".

" وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه

فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين"

صدق اللّه العظيم، هاروح أجيب لك دكتور من الإخوه. صعب أقدر أوديك لدكتور في القلق اللي ف البلد دلوقت، هنشوف حد ينقذك".

مضى الشيخ مسرعا فهمس سلامه لنفسه

" مين اللي قالك إن الموت مش هو الإنقاذ".

حاول أن يردد ما قال الشيخ

" لا إله إلا انت سبحانك اني كنت من الظالمين"

أخرج هاتفه من جيبه واتصل بأمل. بادرته بصوتها العذب الجميل.

obeikan.com

" انا زعلانه منك يا سلامه"

رق ألمه تماما حين سمعها وراقت تفاصيل وجهه كالموج العائد إلى بحره.. صوتها القديم الجديد..عاد بهيا ممتلأ بالبهجة والصبا..

" ليه بس يا حبيبتي"

" ليه محدش قال لي إن منى تبقى أمي؟ "

" معلش. كده أحسن. في حاجات كتير لو معرفنهاش يكون أحسن" .

" هتيجي امتى؟ "

" مش عارف. بس يمكن اتأخر"

" هاستناك".

سقط الهاتف من يديه. وانتهى.

٢٠١٦/١/٢٥

obeikan.com

للاطلاع على أحدث إصدارات مؤسسة إبداع

يرجى زيارة الموقع الإلكتروني

www.prints.ibda3-tp.com

obeikan.com